

تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الإسلامية
<http://islamicfiles.net>

التعريف عز وجل

islamicFiles.Net

بقلم
أ.د/ مبروك عطية

الأستاذ في جامعة الأزهر
والداعية الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أمرنا بعبادته وحده دون سواه ، والصلاة والسلام على عبده ومصطفاه سيدنا محمد وعلى آله ومن والاه .

وبعد

فهذا كتاب سميته " التعرف على الله الذي نعبده " أبتغي به في بدئه وختامه وجهه الكريم ، وأستعين به جل وعلا على إتمامه ، وأسأله عز سلطانه أن ينفع به كل من اطلع عليه ، وأن يجعله عملاً صالحاً مقبلاً ، وقد رأيت أن الحاجة إليه شديدة ؛ فإن كثيراً من الناس في زماننا تعرفوا على كل شيء ، لا سيما الشباب ، لكن تعرفهم على الله عز وجل ما زال في حاجة إلى علم يصاحب كل ذي قلب ، ويعين على كل خطب ، أود من خلال هذا العمل أن أعرض في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية - أننا نعبد الملك ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وإليه يصير كل أمر ، يحفظنا بالليل والنهار ، ويرسل علينا حفظة يحفظوننا بأمره ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، نعبد من لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولا ولي من الدن ولا يشرك في حكمه أحداً ، وإذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون . من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، العفو الذي يحب العفو ، القائل : " مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ لَهُ بَاعًا ، وَمَنْ جَاءَنِي يَمْشِي جِئْتُهُ هَرْوَلَةً " ، من ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، ومن لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، إذا

أحب عبداً من عباده نادى أمين وحيه جبريل ، وأعلمه ، وقال له : أحبه ، ثم أمره أن ينادي في الملائكة أن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فإذا بهم يحبونه ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، فيحبه أهل الصلاح ، غافر الذنب وقابل التوب ، مَنْ إذا اطلع أحد على ما عنده من نعيم قال : لن يعذب أحداً ، ومن اطلع على ما عنده سبحانه وتعالى من جحيم قال : لن يرحم أحداً وهو العدل المطلق ، والكمال المطلق ، حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده حراماً ، وقال : " لا تظالموا " ؛ فالظلم ظلمات يوم القيامة ، يتقبل من عباده المتقين ، ويحب من عباده الصابرين ، ويوفيه أجرهم بغير حساب ، مَنْ شَكَرَهُ زاده من نعمه ، ومن تضرع إليه كشف عنه ضره ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، مَنْ قال : لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه ، وكانت آخر كلامه أدخله عز وجل - الجنة برحمته .

ولا شك أن التعرف على الله - عز وجل - على علم قال عز وجل :
﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

مَتَقَلِّبُكُمْ وَمَمَوَّكُمْ ﴾ محمد: ١٩

وَمَنْ تعرف على الله - عز وجل - على علم أحس بالسعادة الحقيقية التي خاض فيها الناس ، وما وصل معظمهم إلى نتيجة مرضية وخير نتيجة للسعادة أن تكون في معية رب البرية الله الذي نعبد ، فإن مَنْ كان في معية غني من الناس شعر بشيء من السعادة ، ومن كان في معية عالم كذلك ، ومن كان في معية خبير كذلك ، ومن كان في معية حليمة حسناء شعر

بمزيد من السعادة ، إن كان ممن يعنيههم الحسن وفطن إلى أن الحسن حسنان : حسن شكل وحسن خلق وشعرت هي كذلك بقيمته ، وحضرت عليه طرفها ، وحصنت نفسها أولاً عليه كما جاء في حديث البخاري على لسان سارة زوج إبراهيم - عليه السلام - كان كذلك ، ومن كان في معية الله - عز وجل - خاض في لب السعادة لأنه في معية القادر المقدر ، الرؤوف الرحيم ، الولي ، الباسط ، مجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، كاشف السوء ، اللطيف ، الذي جعل لكل شيء سبباً وهو فوق الأسباب ، مَنْ أمره إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، مالك الملك ، ذي الجلال والإكرام ، مَنْ عنده خزائن كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ولي مَنْ آمن به ، حسب من توكل عليه ، لا يظلم مثقال ذرة ، يضاعف الحسنات ، ويعفو عن السيئات ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، يسمع السر وأخفى ، ويجازي بالمقتضى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وكل شيء عنده بمقدار ، وهو العالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، مراده أن مَنْ كان في نعمة زاده إن شكر ومن كان في بلية عافاه إن تضرع وصبر .

وقد دونته في خمسة فصول :

الأول : مع الله - عز وجل .

والثاني : ماذا قال الله .

والثالث : ما يرضي ربنا من القول .

والرابع : ما عند الله .

والخامس : أسئلة الله لعباده .

راجياً أن تكون القراءة فيه رحلة ممتعة مع نور ربنا نور السماوات والأرض ، سائلاً أن نكون بحق عارفين بالله ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

أ.د/ مبروك عطية

الفصل الأول

مع الله عز وجل

يقول العلماء إن لفظ الجلالة " الله " مشتق من " أله " الفصيل : ولد الناقة ، وأله الفصيل لاذ إلى أمه عند استشعاره بالخطر ، ومن ثم فسر العلماء معنى " الصمد " أنه الذي يحتاج الخلق إليه ، ولا يحتاج هو إلى أحد من خلقه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ فاطر ١٥ - ١٧

ولنتأمل معاً تلك الآيات الكريمة التي بنيت على لفظ الجلالة " الله "

يقول الله - تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢

فالله الذي نعبد هو الذي جعل لنا الأرض فراشاً ومهداً وسلك لنا فيها سبلاً ، وجعل لنا السماء بناءً وسقفاً مرفوعاً محفوظاً وهو وحده الذي سخر لنا كل شيء .

قال عز سلطانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسَبِّحُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ١٢ ، ١٣

وفي الآية بعدها (١٤) يقول سبحانه : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ

لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الجاثية: ١٤

وهذا مقتضى من مقتضيات التعرف على الله .

فإن الله - عز وجل - أمرنا بأن نغفر للذين لا يرجون أيامه ، والذين يؤسوا من رحمته ، لأننا في ظل نعمه التي لا تحصى ، ومعنى هذا جليل بعيد ؛ فإن النعمة تعين على المغفرة للمسيء ، بخلاف ما يتوهمه كثير من الناس ، الذين يريدون رحمة دون أن يرحموا ، ويريدون عفواً دون أن يعفوا ، ويريدون عبقرية دون أن يقدموا أسبابها ، وهكذا .

ويقول عز وجل في آية يونس (٥) : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ومقتضى تعرفنا على أن الله جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل أن نعلم عدد السنين والحساب ، فنؤدي حق الزرع والصنع وتقضي الدين ، وتقويم الشعائر ، وتوفى المرأة عدتها ، لا أن نعيش الحياة خبط عشواء ، تمسحاً بالتوكل على الله ، فمن عرف معنى التوكل عرف عدد السنين والحساب ، وأخذ بالأسباب ، وهو على يقين أنهما لن تغني عنه شيئاً إلا إذا أراد الله ، وصدق القائل حين قال :

إذا لم يكن عون من الله للغنى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ويقول الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿البقرة: ٢٦﴾

ومقتضى هذا العلم والتعرف على الله - عز وجل - أن يشكر المؤمن ربه على نعمة ضرب الأمثال ، فقد قال الكافرون كيف يكون هذا القرآن من عند الله ، وفيه النملة والعنكبوت ونحو ذلك ، فنزلت الآية الكريمة رداً عليهم .

والله عز وجل يقول : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٠٧

ومقتضى هذه الآية وغيرها كثير أن يلجأ الناس إلى الله ، وأن يسألوه وحده ، ويدعوه مخلصين له الدين ، يبتغون إليه الوسيلة وهي العمل الصالح الذي تضرع به من دخلوا الكهف فأغلقت بابه صخره ، فتقبل الله منهم ، كانوا ثلاثة يمشون في صحراء ، فلما أمطرت السماء دخلوا غاراً كما قال البخاري وعنون (حديث الغار) فتوسل أحدهم ببره والديه ، والآخر بإعطاء أجيده أجره الذي استثمره له سنين بما آل إليه ، والثالث بتقواه الله حين أعطى ابنة عم له كان يحبها ما طلبت دون أن يكشف لها سوءة ، ففتح الله ، ونجاهم من هذا الكرب .

وهو تعالى يقول في الآية (٢) من سورة فاطر : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وحديث البخاري الذي جاء فيه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول عقب كل صلاة مكتوبة ثلاث مرات : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد " يتضامن مع هذه الآية في إيضاح الفكرة التي هدى إليها المخلصون ، وضل عنها كثير من الناس مع الأسف ، حيث الاعتقاد في غير الله ، والتمسح بالقبور والأضرحة ، والفتنة بالأسباب ، والنجوم والدجل وغير ذلك ومع مزيد من الأسف سطر في كتب التراث المعتمدة مواقف من هذه سببها فيما أرى النزعة الصوفية الضاربة في عمق بعض العلماء لأسباب شتى لم يتخلصوا منها .

وهي تجرح العقيدة ، فالله وحده النافع الضار ، تأمل هذه الآية (١٠٢) من سورة البقرة حيث يقول تعالى في الذين يتعلمون السحر ويعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، ولطالما قلت في الذين أصيبوا بهوس السحر والكلام فيه : من الآخر فليكن هناك سحر ، وليكن هناك ما يكون أما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢ فلماذا تتحدث في أشياء عند الله الحكم فيها ، أما يحسن بنا أن نقول يا من بيده النفع والضرر أكشف عنا كل ضرر ، بالله عليك لو أنك تعرف رجلاً لا يستطيع رجاله أن يضروك بشيء إلا بإذن منه أيكون من العقل أن تذهب إلى رجاله ، وتضيع الوقت والمال وأنت

على علم أنهم برغم ما أخذوا منك من مال ومن ثناء وإطراء لدارهم بأن يؤذوك فعلوا ، ألا يحسن بك أن تتجه إليه هو ، لأنه الأمر الناهي .
لقد روى البخاري حديث سارة زوج إبراهيم - عليه السلام - حين دخلت على الملك الفرعون الذي أراد بها سوءاً ، ما قالت له : أجعلني منك أختك ، ولا أتوسل إليك ، ولا أنا امرأة طاهرة ، فلا تدنس شرفي وعرضي ، وإنما قالت : اللهم إني أعبدك وحدك ، وأنت تعلم أنني حصنت فرجي إلا على زوجي فأصابه الله بالشلل ، فقالت : يا رب لو مات لقالوا قتلته فلم يمته الله ، وظل يرفع ذراعه لا يحركه حتى عفا عنها وتركها ، فما دلالة ذلك ، أليس هذه زوجة لنبي ، أما كان متوقعاً أن تقول شي الله يا إبراهيم ، فلماذا لم تقل .

أما يفيد من يقول ذلك ويتعلم ، ألم يقل الله عز وجل في آية الأعراف (١٨٨) : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتُكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٨

ولا شك أن فاقد الشيء لا يعطيه ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يملك بنص الكتاب لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، نفعا عسى أن يقال فيمن دونه بمراحل تقطع ظهراً لبعير ، ولا يسر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعتقد أتباعه فيه ما لا يملكه ، فلم الإصرار على مخالفة ذلك ، والحب شيء آخر ، وقد بينه ربنا - عز وجل - في آية آل عمران (٣١) : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

آل عمران: ٣١ فقد جعل الله - عز وجل - آية حبنا له اتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم - وكثير من العلماء والناس حين يتحدثون عن اتباعه يتحدثون عن السلوك والعبادات والتأسي به صلى الله عليه وسلم ولا بأس بذلك ، لكن يجب على المتأمل في الآية الكريمة وغيرها أن يعلم أن من اتباعه صلى الله عليه وسلم الذي نحن مأمورون به اتباعه في العقيدة ، ومن العقيدة أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، وكذلك كل مخلوق ، ألا ترى إلى جواب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل - كما روى البخاري حين سألته عن الساعة ، حيث قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل أي أن الملائكة والنبیین سواء في مسألة الساعة لا يعلمها إلا الله وحده ، وكذلك أن يملك أحد نفعاً ولا ضرراً لنفسه ولا لغيره .

الله هو الولي :

في سورة الأنعام ، وقبل أن يقول الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا ﴾ الأنعام: ١٤ قال له : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أَمِرتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٢-١٤

وفي خاتمة الأنعام يقول الله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ١٦٤

نعم نتخذ الله ولياً ؛ لأنه له ما في السماوات والأرض ، ولأنه كتب على نفسه الرحمة ، لم يكتبها أحد عليه ، ولأنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ولأن له ما سكن في الليل والنهار ، ولأنه السميع العليم ، ولأنه فاطر السماوات والأرض ، ولأنه يطعم من جوده وكرمه وفضله ، ولا يطعم لكماله وغناه عن قوام حياتنا من طعام وشراب ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ الشورى: ١١

نعم نتخذ الله ولياً ، لأنه ربنا ، ورب كل شيء لاشك أن الذي يقول وليي الله ، أو حسبي الله ، أو أفوض أمري إلى الله وهو متعرف على فعل هذا ، مستحضر صورته يختلف عن القائل ذات العبارات ، وهو غير مستحضر هذه المعاني ، فلاشك أن استحضار تلك القوة والعظمة يكسب الإنسان ثقة ويقيناً .

فكم من ولي عاجز ، وكم من ولي متوهم فيه القوة ، وهو ضعيف . تأمل قول الله - عز وجل - من سورة البقرة (٢٥٧) : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

فكم من ولي لا يستطيع أن يخرج من تولاه من الظلمات إلى النور ، وكم من ولي لا يطعم ، ولا ينفق ، وهو والد ، وهو قادر ، لكنه إما بخيل وإما متوهم أنه بذلك يعالج ، أو ينتقم ، وإذا كان ولي فتاة غضب أيما غضب أن تختار شريك حياتها على غير هواه ، مع أنه لم يكن ذات يوم ولياليها على معنى الولاية الصحيح ، وما هكذا ولاية رب العالمين ، الذي

يطعم عباده الكافرين الملحدين ، الذين يتخذون ربا سواه ، والذين منهم مَنْ قال : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال كما روى البخاري في صحيحه : " ما أحداً أصبر من الله ، يدعون له الولد ، ويطعمهم ويسقيهم "

سبحان ربنا رب العالمين ، الكريم ، الحنان المنان ، الذي وسع فضله جميع عباده ، لا ينسى مَنْ عصاه فما بالنا بمن أطاعه ، كل نعمته منه وحده ، وحين أرسل رسله إلى عباده وجههم بالتبليغ ، وأمرهم بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبين لهم أن عليهم البلاغ ، فتبارك الله رب العالمين .

لا شك أن التعرف على تلك الولاية ، وتلك الرحمة يكسب المؤمن اعتزازاً بربه ، ويقيناً به وحباً فيه .

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ :

ويقول الله - عز وجل - في آية النحل (٤٠) : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وفي سورة يس الآية (٨٢) يقول ربنا - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ والآية بعدها (٨٣) يقول الحق فيها : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس: ٨٣

وهذه الآية تفسر لنا معنى قوله : ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ لأن الذي بيده ملكوت كل شيء ، لا يخفى عليه شيء في الأرض

ولا في السماء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، بخلاف ما إذا سألت إنساناً شيئاً ، ووراء كل إنسان ما وراءه من شريك ، أو منازع ، أو تصاريف أخرى ، وما لا يحصى من أسباب تحول دون أن يقضى لك حاجتك ، قد تسأل أباك شيئاً وهو أبوك ، لكنك تلتمس الوقت الذي يكون فيه صافياً ، أو غير مشغول ، وقد تعذر أباك ؛ لأنك تعلم ما وراءه من مشاغل ، وغير ذلك ، وقد يعدك أبوك وعداً ، وأنت تعلم أنه غير مخلف ، ثم توافيه المنية ، فقد ضاع وعده رغماً عنه ، كان لأب عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري حاجة في ابن معين علامة اليمن ، وحين عقد العزم على السفر إليه بلغه نبأ وفاته ؛ فحيل بينه وبينه ، وكان بعض الأخيار يخشى ذلك عند وعده ، إذا وعد فقيراً بشيء عاد فقال له ، هات قرطاساً ، فيأتيه به ، فيكتبه له ديناً عليه ، حتى إذا مات كانت له نيته عند الورثة .

فيسددونه له ، وقد كان ، فبالله عليك أيكون ذلك مع الله حتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشرف الخلق وأكرم الناس ، وأجود الناس ، وكان أكرم ما يكون في رمضان ، كان أسبق ما يكون بالخير من الريح المرسلة .

عهد عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يكن يقول لسائل : لا إن وجد عنده ما يحتاج إليه أعطاه ، وإن لم يجد قال له ابتع عليّ ، أي كما نقول في حياتنا اليوم : اشتر على حسابي .

إلا الله وحده ، الذي عنده كل شيء ، وإن أجل فإنما يؤجل لحكمة ، وما من دعوة إلا وتصعد إليه ، فيعطي سائله ما أراد ، أو خيراً منه ، أو

يدخر له ما هو خير منهما يوم القيامة أقصد أي إنسان ، ولك احتمال العطاء ، ولك احتمال المنع لعذر أو لغير عذر ، أما إذا قصدت الله فما خاب قصدك وما رجعت صفراً بحال من الأحوال إن كنت تقياً ، النقص لا مكان له عند ذي الجلال ، وله مكان عند جميع الرجال ، وهناك قطيفة أخرى مستفادة من علم اللغويين الذين قالوا : إن بدل الغلط والبداء لا يكون في كلام الله تعالى ولا في كلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - الصحيح أنها قطيفة البداء ، وأود أن أسوق لها مقالين :

الأول: ذهب شاب لخطبة فتاة ، فرحبوا به ترحيباً عاد من بعده يكاد يطير .

فلما ذهب إليهم مرة أخرى وجد الوجوه عابسة ، والندى صغراً محرقاً ، فتعجب ، وظهر له أنهم بدا لهم بدا ألا يزوجوه لسبب أو لآخر ، تقدم غيره فوجدوه خيراً منه ، أو سألوا عنه فوجدوا في أهله علة .

والثاني : أن رجلاً وعد رجلاً أن يقرضه مبلغاً من المال ومثله مَنْ وعد صاحبه بأن يشاركه مشروعه ، فلما جد الجد ، فلا أقرض الأول ، ولا شارك الثاني ، بدا لهما بداء ، فأحجم كل منهما على إثره .

وما هكذا الحال مع ذي الجلال ، الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وعنده العلم القديم ، ولا شريك له ، لا يشرك في حكمه أحداً ، تجلّى في ملكوته وما يعطيه لا ينقص خزائنه .

بم أمر الله وعن أي شيء نهى ؟

إن التعريف على الله - عز وجل - يقتضي أن يتعرف العبد على ما أمر الله به وما نهى عنه ، والله عز وجل يقول في آية النحل (٩٠) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وفي الأعراف الآية (٢٩) : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ .

وفي يوسف الآية (٤٠) : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ .

وفي النساء (٥٨) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ .

وفي التوبة (٣١) : ﴿ وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وفي البينة (٥) : ﴿ وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

حَقَائِقُ

فإن الله عز وجل أمر عباده بعبادته هو وحده لا شريك له وأمر بالعدل ، وأمر بالإحسان ، وأمر بإيتاء ذي القربى وأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، وأمر من يحكم أن يحكم بالعدل ، ونهى سبحانه وتعالى عن الشرك ، وعن الظلم والفحشاء والمنكر والخيانة ، وأكل أموال الناس بالباطل أي على سبيل الإجمال أمر ربنا بكل خير ، ونهى ربنا عن كل شر ؛ فما أعظم ما أمر به وما أعظم ما نهى عنه ؛ فما أعظم الله الذي نعبد .

وهنا كلمة طيبة أود أن أسوقها في هذه الفكرة ، وهي أن الناس يعلنون حبهم لمن هو واضح ، يقولون نحب فلاناً لأنه واضح يبين لنا ما عنده ، وما

يريد ، وما يكره ، ويقولون : لم يتركنا على عمانا ، أليس الله أولى بذلك ، فقد بين لنا ، ثم هناك لطيفة أخرى ، وهي أن ما بينه الله لنا قرآن تبييناً على تلاوته ، ولو كتب لنا إنسان ورقة كتب فيها ما يحب وما يكره وقرأناها ألف مرة ما كانت قرآناً ، وما كانت تلاوتها عبادة ، إنما تكون العبادة في الالتزام بما جاء فيها بنية تحقيق الخير للنفس ، ولذلك الإنسان ، إما يرد تلاوتها وفك حروفها أو التغني بها ، أو وضع الحان لها فليس ذلك من قبيل التعبد الذي نجده في كتاب الله عز وجل .

ولطالما استبشر الصحابة حين كان ينزل الوحي : بيا أيها الذين آمنوا ، يقولون : ماذا يريد ربنا منا ؟ لأن نداء هم يا أيها الذين آمنوا فيه إدخال السرور عليهم ، لأنه شهادة لهم بأنهم مؤمنون ، وهم يتلقون أمر الله - عز وجل - بالقبول ، ولديهم الاستعداد الكامل لإنفاذ أمر الله ، وكذا أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله ، قال الله عز وجل : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ النساء : ٨٠ .

الذين يحبهم الله تعالى :

في الحديث القدسي أن الله إذا أحب عبداً كان له سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، أي كان له نور من ربه ، وبناء على ذلك نقبل على السبيل التي تؤدي حتماً إلى هذه النتيجة ، أي حب الله - عز وجل ، فما الذين يحبهم الله .

١- يقول الله - تعالى - في آية البقرة (١٩٥) : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأول معنى من معاني الإحسان ما ورد في حديث جبريل عليه السلام " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .

ومن معاني الإنفاق ، يدل على ذلك سياق الآية السابقة : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة: ١٩٥

ومن ذلك إحسان المرء في كل شيء ، ومنه أن يلقي أخاه بوجه طلق ، والمعروف كله صدقه كما جاء في الحديث الشريف ، وقال عليه الصلاة والسلام : " لا تحقرن من المعروف شيئاً " وذكر من أمثله ذلك أن تدل من دلوك على دلو أخيك طالب الماء ، وأن تلقى أخاك بوجه طلق ، ومنه أن يحسن العامل عمله بإتقانه وتزيينه ، ومنه حسن الذبحة كما جاء في الحديث : " وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة " .

٢- وفي آية سورة البقرة (٢٢٢) : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وفي آية التوبة (١٠٨) : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ .

وفي آية المدثر (٤) : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ .

وفي آية الأحزاب (٥٣) : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ .

فانظر في ضوء هذه الآيات إلى الطهارة الحسية والمعنوية معاً والله - عز وجل - يحب المتطهرين ، طهارة حسية وطهارة معنوية والحسية تكون برفع النجاسات وإزالتها ، والتخلص منها ، والمعنوية تكون باتباع ما أمر الله - عز وجل - به ، واجتناب ما نهى عنه ، حتى وإن كان ما نهى عنه يبدو جميلاً أو طاهراً أمام أعين مَنْ لا يرى بنور الله - عز وجل - فإنه مثلاً يعجبه الكثير لذاته بغض النظر عن كونه خبيثاً ، ألا ترى إلى قول الله ربنا - في آية المائدة (١٠٠) : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

وأهل الطهارة لا يأكلون ما اليتيم ظلماً ؛ لأنهم يرونه بنور الله ناراً أما غيرهم فلا يرونه كذلك .

ألا ترى إلى قول الله - تعالى - في آية النساء (١٠) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

لا شك أن الذي يرى مال اليتيم الذي قد يكون لحماً طيباً وفاكهة لذيذة حلوة ، وماءً بارداً ، وغير ذلك ناراً هو الذي أبى إلا الطهارة ؛ لأنه رأى بنور الله .

ونسى على ذلك كل حرام ، يراه من يرى بنور الله نجاسة وفحشاً وإن بدت صورته طيبة للناظرين ، فالرجل الذي عصمه الله من الزنا يراه كما قال الله فاحشة وساء سبيلاً : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ الإسراء: ٣٢ .

والذي اختاره لنفسه متعة وأنساً يرى صاحبه حسناً جميلة معطراً ، وقد يقارن مع الشيطان وهوى النفس بينها وبين حليته ، فيرى حليته دميمة مهملة في نفسها رائحتها غير طيبة ، ولا يعني هذا أن تكون الحليلة هكذا ، فعلى الزوجة أن تعنى بزینتها لزوجها ، كما على الزوج ذلك لكن الحليلة وإن لم تتزين أحسن امرأة في الدنيا عند الذي يرى بنور الله عز وجل .

وكذلك مَنْ يأكل الحرام من غش وغرر وخداع ، وغيرها ، لا يرى في ذلك طيباً ولا طهراً ، وإنما يرى فيه خبثاً ونجاسة : لأن الله حرمه ، والذي يأكل الحلال وإن كان قليلاً أو رديئاً في الشكل إنما هو طيب عنده ؛ لأنه حلال .

٣- وفي آية آل عمران (٧٦) : ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

ومن التقوى بلا شك الوفاء بالعهد ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - في آية التوبة (٤) : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، وفيها الآية (٧) : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وما أشد حاجة الناس إلى التقوى ، من حيث معناها الحقيقي وأقصد به العملي ، ذا الصلة الوثيقة بالسلوك ، فمن عزف عن أكل مال اليتيم ظلماً فقد اتقى الله ، ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ النساء: ٩

ومن يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى هو التقي ، ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ الليل (١٧ - ٢١)

ومن زكى نفسه ، فطهرها من سوء العادات والتقاليد ، ونأى بها عن كل غريب من السلوك مستوحش ، وكان مادباً بأداب الإسلام في حله وسفره ، وحدته واجتماعه ، عناه وفقره ، فرحه وألمه ، صمته وكلامه ، كان تقياً ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ الشمس: ٧ - ١٠

ومن أحسن عشرة امرأته ، فإن طلقها عند استحالة المياة لم يخرجها من بيتها ، وإما أن يمسكها بمعروف أو يفارقها بمعروف كان

تَقِيًّا ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ الطلاق: ٢ ، ٣

وما أكثر القضايا التي تتصل بالمرأة في سياق التقوى وفي سورة الطلاق نفسها الآية (٤) : ﴿ وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ .

وفيها الآية (٥) : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ .

ومن يتدبر قصص السابقين ، ويتعظ بما جاء فيها كان تقيًّا : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ الطلاق: ٨ - ١٠

ومن خشي لقاء ربه ، وعمل بمقتضى هذه الخشية كان تقيًّا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ لقمان: ٣٣

والتقي من ينفق في السراء والضراء ، ومن يكظم غيظه ، ويعفو عن الناس ويحسن ، وإذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه ذكر وعيد الله على ذلك الذنب ، وتلك الفاحشة ، فاستغفر من ذنبه ربه ، ولا يغفر الذنب إلا الله ، ولم يصر على ما فعل وهو يعلم : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦

وَمَنْ إِذَا مَسَّهُ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرَ فَأَبْصَرَ ، فإذا به يعود إلى رشده ، ولا يقترب الإثم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١

وإذا قيل له اتق الله كذلك ، نفعه ذلك ، ولم تأخذه الغزة بالإثم : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ مريم: ١٦ - ١٨

٤- والله عز وجل يقول في آية آل عمران (١٤٦) : ﴿ وَمَا ضَعُفُوا

وَمَا اسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

وهذه الآية بالذات والتي جاءت على هذا النسق : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ مهمة جداً في بيان الصابرين الذين يحبهم رب العالمين فهم الذين لا يضعفون ولا يستكينون ، ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ آل عمران: ١٤٦

فإذا أردت أن تعرف سبب قوتهم فاقراً هذه الآية (١٠٤) من سورة النساء ، حيث يقول الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . نعم إن الألم قاسم مشترك بين المؤمن وغير المؤمن ، لكن يخفف من ألم المؤمن أنه يرجو من الله ما لا يرجو الكافر وما عسى أن يرجو من الله ؟

إنه يرجو من الله الرحمة في الدنيا والآخرة ، ولك أن تقف عند هذا الإكسير الخطير ، الذي ليس بسائل ولا صلب ولا غيرهما بحيث تراه العيون ، أي ليس علاجاً محسوساً كالذي في الصيدلية ، والذي قد يكون له مفعول سريع ، إنه اليقين الذي إذا تحقق تحقق مقتضاه فقد قاله عليه الصلاة والسلام : " أصدق الله يصدقك " .

ولك أن تتلقى هذا المعنى الكبير من خلال ممارستك منك فيك وفي الناس ، إذا كان بك رجاء في شيء ، إنسان أو غير إنسان ، فإن كان من رجوته لا يخيب رجاء كان الرجاء علاجاً عظيماً ، كالذي يبيت الليل مهموماً بحمل مادي كبير وكاف به رجاء في جابر عثرات من الناس لا يخزي من قصده ذهب الهم عنك ، أو كان لديك عقار حوله الكثيرون

الراغبون فيه بأي ثمن ، كان ذلك كذلك ، بخلاف ما لو كان بك رجاء في إنسان متردد ، أو في عقار لو عرضته بأبخص سعر ما اشتراه أحد . متى أهين جليسكم ؟

فقام رجل من النوم ، وضرب عثمان - رضي الله عنه - على عينه ؛ فاخضرت ؛ فجاء الوليد وقد شاهد المنظر ، وقال له : يا ابن أخي ، أما كان جوارى خيراً لك من هذا ؟

فقال له عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - : لا تشمت فوالله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله .

تري ، عن أي شيء قال عثمان - رضي الله عنه - ذلك ؟ لا شك أنه قال عن يقين أنه مأجور ، وما افتقرت عينه الصحيحة إلى ما أصاب أختها في الله إلا رجاء الطمع في المزيد من رحمة الله - عز وجل - .

وأنت إذا تأملت آيات التوبة المذكورة هنا علمت أنه ما يصيب المجاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من تعب ولا مشقة ولا عطش ، ولا جوع ولا غير ذلك من نفقات صغيرة لا كبيرة وحتى قطع الوادي ، كل ذلك مكتوب لهم أجره وثوابه ، ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ آل عمران: ١٩٥

٥- ويقول الله - عز وجل - في آية الحجرات (٩) : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

والقسط : العدل ، ومعنى المقسط : العادل ، ومعنى القاسط :
الظالم ، قال - تعالى - في آية الجن (١٥) : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا
لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ .

ويبدو أن هناك فرقاً بين العدل والقسط يفهم مما ذكره ابن منظور
- رحمه الله - في لسان العرب (ق س ط) حيث قال : وجاء في بعض
الحديث : " إذا حكموا عدلوا وإذا قسطوا أقسطوا "

حيث أن العدل يكون في الحكم ، والقسط يكون في العطاء .

وقد جاء في اللسان : والقسط : الحصة والنصيب ، يقال : أخذ كل
واحد من الشركاء قِسطه أي حصته ، وكل مقدار فهو قسط من الماء
وغيره ، وتقسطوا الشيء بينهم تقسموه على العدل والسواء ، وقد قال
الله - تعالى - في آية الأنبياء (٤٧) : ﴿ وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ
الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ لأن كل شيء يوضع في الميزان ، وعليه
وبناء على قوله تعالى أيضاً في آية الأنعام (١٥٢) : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا ﴾ أقول : إن العدل يكون في القول والحكم والقضاء ، ويكون
كذلك في العطاء أما القسط فلا يكون إلا في العطاء ، والدليل على أن
العدل يكون كذلك في العطاء قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "
اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم " ومناسبة الحديث في العطاء ، لأن
النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - أراد أبوه أن يخصه بعتية دون
سائر إخوته ، وأرادت أمه أن يشهد على ذلك رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فسأله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ألك غيره ؟

" فقال : نعم ، فقال : " هل أعطيتهم مثل الذي أردت أن تعطيه ؟ "
فقال : لا ، فقال عليه الصلاة والسلام : " اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم "
وقد رواه البخاري وغيره .

وإذا علم المؤمن أن الله - تعالى - يحب المقسطين أقسط وإذا علم
أن الله - تعالى - يأمر بالعدل عدل ، وقد جاء في آية الحجرات السابقة :
﴿ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾
الحجرات: ٩ ، فجاء الجمع بين العدل والقسط ؛ لأن أول الصلح حكم ،
والله عز وجل يقول في آية النساء (٥٨) : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ثم يلي الحكم تنفيذ ، والتنفيذ يكون بإعطاء صاحب
الحق حقه .

وهذا الذي جعلنا ننتبه إلى سبب فساد الصلح الذي يكون بين كثير
من الناس ، والذي أعبر عنه دائماً بالصلح الصوري ، أي يقول
المصلح: يا فلان عليك الحق ، ثم يقول له : قم وقبل رأس أخيك ، فهل
هذا صلح ؟

إن الصلح المبني على القبلات ، ومجرد قول القائل : حقك علي
ليس صلحاً في الحقيقة ، بدليل أن النار تشتعل بين المصطلحين بعيد
الصلح الصوري ، إنما يكون الصلح حقيقياً إذا توفر فيه أمران :

أولاً : العدل في الحكم .

ثانياً : القسط ؛ بإعطاء صاحب الحق حقه ممن ظلمه اللهم إلا إذا عفا عنه بكامل إرادته .

والذي يرفع الناس إلى عدم القسط الميل إلى الهوى ، والهوى تيار جارف ، يجرف صاحبه إلى هاوية ، ليس هناك أخطر منها ، وهي هاوية بغض الله له ، لأن الله لا يحب الظالمين ، وسوف يأت ذلك .

فهنيئاً للمقسطين الذين يقسطون في العطايا لا سيما بين أولادهم لأن الله - عز وجل - يحبهم ، وإذا أحب الله عبداً كان له سمعه وبصره ، ورجله ، ويده ، أما ابتلاء المرء على قدر دينه فسوف يأتي كذلك في موضعه بإذن الله تعالى من هذا الكتاب ؛ لأن فهم الناس هذه المسألة فيه خلط كبير ، نسأل الله - تعالى - أن يلهمنا الصواب في فهم دينه ؛ لأن فهم الدين من لب التعرف على الله - عز وجل .

٦ - الله يحب المتوكلين .

ويقول الله - تعالى - في آية آل عمران (١٥٩) : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

والكلام الصحيح في المتوكل على الله أنه أخذ بالأسباب ويقين بالله عز وجل ، ومضى وإنفاذ ، وخير دليل على ذلك هذه الآية الكريمة حيث قال الله - تعالى - : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران : ١٥٩ ، والشورى من الأسباب

، حيث أنها استقراء لعقول الناس ، واستخلاص ما فيها من رأي ومن خبرة ، ويكون من بعد الشورى عزم وقرار ، وإصرار ، وينبني على ذلك إنفاذ ما عزم عليه ، ولطالما أخذ الناس قراراً ، ولم ينفذ قراره ، وغير ذلك من الأمور التي تتنافى ومعنى التوكل .

وقضية التوكل من القضايا المهمة ، لما حولها من لبس عند كثير من الناس ، فمن زاعم أن التوكل على الله معناه ترك الأسباب ، حدث من زمان ، حين كان أناس من اليمن يخرجون إلى الحج من غير زاد ، ويقولون لا نأخذ معنا زاداً فنحن متوكلون ؛ فأنزل الله - تعالى - قوله من سورة البقرة الآية (١٩٧) : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

ومن الناس من يزعم أن التوكل معناه إنفاق كل ما في الجيب ، يقول : أنا متوكل على الله ، ولا يهمني ، ويرد ذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدخر لأهله قوت سنة ، وهو بلا شك إمام المتوكلين ، وأول المسلمين ، وسيد المتقين .

ومن الناس من يزعم أن التوكل على الله معناه عدم الإدراك .

ألست ترى الناس يقولون في المجذوب ونحوه ، هذا من المتوكلين والصواب علمياً أنه من المغرورين أو المعوقين بفتح الواو ، والدليل على ذلك أن العقل في الإسلام مناط التكليف ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ آل عمران : ٧

وحقيقة التوكل كما ذكرت ، فإذا توفرت أسبابه أحب الله المتوكل
وكان حسبه ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾
الطلاق: ٣ .

الذين لا يحبهم الله :

أود في هذا البحث من الكتاب أن أبين الفرق بين حب الله وبغضه
وبين حب الناس وبغضهم ، فبداية أقول : يجب ونحن نتعرف على الله -
عز وجل - الذي نعبد ، وهو ربنا ، ورب كل شيء ، أن تستحضر في
قلوبنا وفي ضمائرنا - لأن هذه عقيدة . وكذا أمام أعيننا أن الله عز وجل
ليس كمثله شيء ، قال تعالى في آية الشورى (١١) : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وإذا كان علماء التوحيد وغيرهم يستشهدون بهذه الآية الكريمة على
نفي التجسيد فإنني أتناولها من كل شيء ، فالله عز وجل ليس كمثله شيء
في تلك الجهة التي بذل فيها العلماء جهداً مشكوراً ، وليس كمثله شيء في
كل شيء ، ومن ذلك : ليس كمثله شيء في الحب والبغض ، والصبر ،
والرحمة ، والعذاب ، ألا ترى إلى قوله تعالى في آيتي الفجر (٢٥ ، ٢٦) :
﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ ﴾ .

ومن انتفاء المنلية في الحب أنه لا أحد يحب أحداً ، فينادي في أهل
السماء وأهل الأرض أن أحبه . إلا الله - عز وجل - ولا أحد يبغض أحداً
ويطعمه ويسقيه إلا الله عز وجل ، وقد دعانا إلى عدم ظلم من نبغض ،

حيث قال في آية المائدة (٨) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ومن الناس - وهم كثير من إذا أبغض أبغض الأبد ، وإن حاول
المبغوض إرضاءه بأية صورة أوى ، ولا شك أن الله لا يحب الظالمين ،
وأول الظالمين الكافرون ، ومع ذلك قال عز من قائل في آية الأنفال (٣٨) :
﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ
سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، وهكذا فسبحان من له الكمال المطلق وحده لقد رأينا خاتم
النبيين سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - يدعو على المشركين شهراً
في قنوته، كما قال الطحاوي في موسوعته (معاني الآثار) وغيره ، فأنزل
الله عليه قوله في آية آل عمران (١٢٨) : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ
يُتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فلم يدع عليهم - صلى الله عليه وسلم - .

وآخر آية من سورة الأحقاف (٣٥) يخاطبه ربنا - تعالى - بقوله :
﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَبَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ
الْقَاسِيُونَ ﴾ .

وفي آية مريم (٨٤) : ﴿ قُلْنَا تَعَجَّلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴾ هذه
الآيات كان يجب على كل متحدث في مناسبة دينية وغيرها أن يجعلها
نصب عينيه وهو يتحدث عن رحمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
ورفقه بالكاذبين قائلًا : وهذا من رحمة الله بهم ، فالله هو الذي أمره ألا

يستعجل لهم العذاب ، ذلك لأن المتحدثين لا يذكرون شيئاً منها ، الأمر الذي يوهم بأن سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : "اللهم اهد قومي" ، ولم يدع عليهم من تلقاء نفسه ، فالحق أحق أن يتبع .

كنت وما زلت أحب أن يقال : وقد استجاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأمر ربه ، فلم يدع على قومه ، هذا هو الإنصاف الذي أحسبه يرضي الله - عز وجل - ويرضي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

والآن أقول : من الذين لا يحبهم الله تعالى .

١- الله لا يحب الظالمين :

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٠
وأول الظالمين الكفرة الفجرة ، الذين أرسل الله تعالى - إليهم رسله ، فكذبوهم ، وآذوهم ، واعتدوا على آيات سألوها كالذين عقروا ناقة صالح ، والذين اتخذوا العجل من بعد موسى ، والذين قتلوا الأنبياء ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ آل عمران: ٢١ ، ٢٢ .

وهناك ظلم هون ظلم ، والظلم كله حرام ، ومع هذا قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْعًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

النساء: ١١٠

ويقول الله - عز وجل - : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣

وحين نزل قول الله - تعالى - من سورة الأنعام الآية (٨٢) : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ هرع الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خائفين ، وقالوا : هلكننا ، فأينما لم يظلم نفسه يا رسول الله ، فبين لهم - صلى الله عليه وسلم - أن ذلك في الدنيا والآخرة .

٢- ويقول الله عز وجل في آية النساء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ النساء: ٣٦ وفي تفسير ذلك يقول الله - تعالى - في الآية بعدها (٣٧) : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَاشُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .

وقد ورد في غزوة أحد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : مَنْ يَأْخُذْ سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ، يُقَاتِلْ بِهِ بِحَقِّهِ وَلَهُ الْجَنَّةُ ، فسأله الزبير بن العوام ، وهو ابن عمته صفية فلم يعطه إياه ، وسأله إياه أبو دجانة سماك بن خزيمة ، فسأله إياه ، ولم يعطه إياه ، فماذا يقول الله ؟ فقال : نقاتل به حتى ينحني ، وأخرج عصابة حمراء ، كان إذا وضعها على رأسه عرف الناس أنه سوف يقاتل ، يقال لها : عصابة الموت ، لما رآه الناس قالوا : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ومضى - رضي الله عنه

— يتبخر بين السيوف فقال - صلى الله عليه وسلم - هذه مشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع ، نعم يريد من يتبخر لأنه مقبل على عمل خير مثل هذا ، لا الذي يتكبر ، ويفخر على الناس ، وكما قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ النساء: ٣٧ .

إن الله يحب من يظهر نعمته عليه ، روى البخاري وغيره قول النبي - صلى الله عليه وسلم - إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقال عليه الصلاة والسلام لو ألد أبي الأحوص حين رآه على هيئته غير طيبة وله قال : أكرم نفسك كما أكرمك ربك .

٣- ويقول الله - عز وجل - في آية النساء (١٠٧) : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ .

وفي آية الأنفال (٥٨) : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

فالخائن لا يحبه الله ، والخوان لا يحبه الله ، والفرق بينهما أن الخوان كثير الخيانة ، فهو مبالغة ، وتستطيع أن تقول : إن الله يبغض الخائن ، وبغضه للخوان أشد ، كما جاء في بعض الروايات : إن الله يبغض الشاب الزاني ، وبغضه للشيخ الزاني أشد ، وذلك لأن الشيخ ليس له صبوة ، وكما جاء في حديث البخاري حين سئل - صلى الله عليه وسلم - أي الذنب عند الله أعظم ؟ فقال : أن تجعل لله نداً وهو خلفك فقال السائل ثم أي ؟ قال أن

تقتل ولدك " أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ؟ " فقال : ثم أي ؟ قال : " أن تزني بحليلة جارك " ، فلا شك أن القتل بغير حق حرام ، وقتل الولد أشد حرمة ، والزنا - والعياذ بالله - حرام ، والزنا بالجارية أشد حرمة ، لما لها من حق الصون والعفاف ، ومثله - والعياذ بالله - ما يقال فيه زنا المحارم ، أن يزني المرء بأخته أو أمه أو ابنته ، فالحرام درجات ، وليس معنى ذلك أن هناك حراماً خفيفاً ، ومتسامحاً فيه ، وكذلك الخوان ، إذا كان الله تعالى لا يحب الخائن ، فهو لا يحب الخوان ، من باب أكد ، ويقتضي هذا أن الله - تعالى - يحب الأمين ، والخيانة قد تكون في العقيدة بأن يظن الإنسان نفعاً وضرراً في غير الله عز وجل ، أو أن يتعلق بخرافة من الخرافات ، وعادة من العادات ، وقد تكون الخيانة في المال بأن يأخذه فيضيعه أو ينكره ، أو ينكر بعضه ، وقد تكون في الشهادة ، فيشهد زوراً ، وقد تكون في اكتساب خطيئة أو إثم ثم يرمي بذلك على بريء ، قال الله - تعالى - في آية النساء (١١٢) : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ ، وقد قالت امرأة العزيز كما جاء في سورة يوسف : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ يوسف: ٥١ ، ٥٢

وذلك بعد أن قالت لزوجها : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يوسف: ٢٥

٤- ويقول عز وجل في آية المائدة (٦٤) : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

فإنه لا يحب المفسدين الذين يسعون في الأرض فساداً بإهلاك الحرث والنسل ، كما قال تعالى في آية البقرة (٢٥) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ سَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ يُعْلِمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ هُمُ الَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .
أي لا يحب الفساد أصلاً ، والذي يحدث الفساد هو المفسد ، فإنه لا يحب المفسد ، ويقتضي ذلك أنه تعالى يحب المصلح الذي يصلح الشيء الفاسد ، ويصلح الأرض الخراب ، ويصلح ذات البين وبين المتخاصمين ، ولا يحب المفسدين الذين يهلكون الحرث والنسل ويقطعون الأخضر واليابس .

وفي آية الأعراف (٥٥) يقول الله - تعالى - : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وفي آية البقرة (١٩٠) يقول تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ونحن في عمل عنوانه " التعرف على الله عز وجل " نرى أنه من باب التعرف على الله عز وجل - أن نعرف أنه - عز وجل - قال في الآيتين : " لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " فسوى بين الاعتداء في الدعاء ، والاعتداء في القتال ، وقد يبدو أماناً أن بينهما فرقاً واسعاً ، حيث إن الاعتداء في القتال

يقتضي مزيداً من سفك الدماء وإراقتها ، وغير ذلك ، فهو شنيع ، فيما يبدو الإعتداء في الدعاء سهلاً ، خاصة أننا حين نطلع على ما قاله العلماء المفسرون في ذلك ونعرف أن رفع الصوت في الدعاء من الإعتداء فيه ، ولطالما استخف الناس برفع الصوت ، والله - عز وجل - لا يحب رفع الصوت من غير ضرورة ، الا ترى إلى قوله تعالى في آية لقمان (١٩) : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، وهذا توجيه منه - عز وجل - لعباده فيما بينهم ، فما بالنا فيما بينه - تعالى - وبينهم ، وقد بين رسوله - صلى الله عليه وسلم - للناس أنهم لا يدعون أصم ولا غائباً ، وذلك حين رآهم يرفعون أصواتهم بالدعاء ؛ فما عسى أن يقال في الذين أحالوا الدعاء إلى أناشيد ، وأصوات مرتفعة عالية ، ومزجوه بالبكاء ، والحركة والإضطراب في الصلاة ، وقد نبه المناوي في كتابه فيض القدير إلى أن الدعاء بالتنعيم غير مستحب عند ملك من ملوك الأرض فكيف يكون مقبولاً عند ملك الملوك سبحانه وتعالى ، وقد ذكر الأئمة أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يلحون في الدعاء ، ولا يسمع بعضهم بعضاً ، وذلك لأنهم يؤمنون أن الله - تعالى - سميع قريب ، لا تختلط عليه الأصوات ، وقد ذكر العلماء ، ومنهم ابن حجر في فتح الباري أن من الإعتداء في الدعاء - الدعاء بمحرم ، وأن يقال : دعونا فلم يستجب لنا .

والله عز وجل يقول في آية الأعراف (٣١) : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ الله - عز وجل - لا يحب المسرفين ، والإسراف معناه : مجاوزة الحد ، وقد قيل من قديم إن الله - تعالى - جمع الطب في بعض آية ، حيث

قال : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الأعراف: ٣١ ، إنه الاعتدال الذي لا يحبه الله تعالى والذي هو لصالح عباده بلا شك ، كما قال العلماء المعنيون بالطب والحكمة والذين يسرفون يتجاوزون الحد المطلوب لقوام حياتهم في الوقت الذي يحتاج فيه غيرهم إلى لقمة من لقم يرمون بها ، فنحن نرى المسرفين يأكلون القليل مما أعدوا ، ويرمون الكثير ، شاهد ذلك من حضر الولائم وغيرها ، والله در المنفلوطي حين ذكر أنه مرّ برجلين يشكو كل منهما بطنه ، قال الأول : أكلت فوق طاقتي ، وقال الثاني : لم أكل منذ ثلاثة أيام ، فقال : لو أن الذي أكل فوق طاقتة أعطى الثاني لقمة لما شكا أحد منهما بطنه ، أي أن الذي أسرف لو أعطى الزائد عن حاجته ذلك الجائع لأكل كل منهما ، وما توجعا ، لكن هذا يتوجع بسبب إسرافه ، وذاك يتوجع بسبب ضيق ذات يده ، وله بلا شك حق في مال الأول لو كان الأول مؤمناً بالله ورسوله .

ومن نوادر ما يحكى عن المسرفين أن الواحد منهم يشتري شيئاً بثمن عال ، فإذا عاد إلى بيته وجد منه نسخاً مكررة ، أي أنه نسي أنه اشتراه من قبل ، وهذا يدل على أن الإسراف مرض ، وعلاجه أن يعرف المسرف أن الله لا يحبه ، وكما أن هناك إسرافاً في الماديات هنالك أيضاً إسراف في الذنوب ، ولا فرق فالإسراف هو الإسراف ، ويكفي أن الله - عز وجل - لا يحب المسرفين ، وبرغم ذلك يدعو الذين أسرفوا على أنفسهم إلى أن ينيبوا إليه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣ .

ويقول الله عز وجل في آية النحل (٢٣) : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

إعلان من الله أن الله عز وجل لا يحب المستكبرين فقد أهلك من استكبر هو وجنوده من قبل ، والإستكبار معناه طلب الكبر ، والإغراق فيه ، ولو كان حقاً لأحد ما كرهه الله عز وجل ، وإنما الكبرياء لله وحده ، ومن ثم نجد قول الله تعالى في آية الأعراف (١٤٦) : ﴿ سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

والشاهد فيها قوله عز من قائل : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، فلو كان تكبرهم من حقهم لما كرهه الله عز وجل ومعظم الذي يتكبرون يرون أنهم أهل للتكبر بما أوتوا من مال وفير ومنصب كبير ، وجاء عريض ، وملك ، وسيادة ، وقد يوافقهم الجاهلون ، الذين نسمع منهم عبارة : " أطمع أن يزروك الوزير فلان أو الرئيس فلان ... أنت تحلم " وعلّة ذلك تكون مقبولة إذا كان المانع من زيارة هذا أو ذاك انشغاله بمصالح الناس وما استرعاه الله تعالى ، وما حمله إياه من أمانة ، أما العلة البارزة المعروفة فهي أن البون شاسع بين هذا وذاك وبين الطامع في زيارتها ، فقل هذا وذاك لا يتنازل ، ولا يتواضع حتى يزور من هو دونه ، وقد جاء في الصحيح قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " ، وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري وغيره : " لا ينظر الله إلى رجل جر ثوبه خيلاء " ، فما قال

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ :

ما زلت أذكر حديث كثير من الناس الذي يمدحون زوجاتهم خصوصاً في أول عهدهم بالزواج ، حين يقول الواحد منهم : إن زوجتي تعلم ما أريد دون أن أقول لها شيئاً ، فهي تعرف في ساعة كذا أنني في حاجة إلى كوب من الشاي ، فتقوم ، فتعده لي دون أن أطلب منها ذلك ، الله ، ما شاء الله ، سبحان الله ، وهكذا ، وبعد حين تنسى تلك الزوجة مثل هذه العادة ، والذي يدلك على أنها قد نسيت هو نفسه الذي قال لك من قبل أنها وأنها ، فإن قلت له : كيف وقد قلت لي كذا وكذا ، قال لك : كان زمان ، أما اليوم فوالذي جمعنا على غير موعد إنني أصرخ فيها هاتفاً : كوباً من الشاي أرجوك وكأنني ما قلت شيئاً .

والشاهد من القصة التي تتكرر أن إعجاب الناس وسعادتهم بمن يعرف ما يشتهون ويعمل على إحضاره شديدة ، فهل فكر أحد في رب العزة سبحانه وتعالى من تلك الزاوية ؟ ألا ترى إلى قول الله تعالى في آية البقرة (٢١٦) : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

من ذا الذي قال لك مثل هذا ؟ من ذا الذي قال لك هات كذا وأنا أعلم أنه صعب عليك ، ولكن هذا في مصلحتك لا عجب في أن يعلم الله - عز وجل - ما نحب وما نكره لسبب واحد هو أنه - تعالى - خلقنا ، فهو أعلم بنا من علمنا بأنفسنا ، قال تبارك وتعالى في آية الملك (١٤) : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ

الناس إن الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، لم ينكر - صلى الله عليه وسلم - عليهم ذلك بل بين لهم أن الكبر غمط الحق وظلم الناس .

ثم أقول : لماذا يكون المال والجاه والمنصب وغيرها غير مسوغ للكبر لأن الإنسان مهما أوتي من الحياة الدنيا وزينتها فليس أهلاً للتكبر إنما هو مستودع لهذه الأشياء ، كما قال الشاعر من قديم :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وجميع ما في ملك الإنسان كما بين العلماء إما أن يذهب ، وإما أن يذهب عنه مالكة فلم التكبر ؟

وزهابه يكون بسبب ظلمه وفساده ، وقد نهاه الله عن كليهما والتكبر من الظلم ، فإذا تواضع مع عباد الله لوجه الله فقد حفظ عليه نعمة الله تعالى - وأما ذهابه عنه فحتم مقضي ؛ لأن الخلد لا يكون لبشر ، إلا من قبيل توهم المتوهمين الذين يزعمون أنهم خالدون ، كما قال الله - تعالى - : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ الهمة: ٣ .

وقد قال صاحب الجنين : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ الكهف: ٣٦ ، وقد تكبر على صاحبه ، فكانت عاقبته أن أحيط بثمره ومن قصص الرقائق أن رجلاً غنياً طاف بالبيت وكانت حاشيته حوله تدفع عنه الناس حتى يطوف وحده ، وبعد عام رآه رجل يجلس على جسر بغداد يمد يده للناس ، فعرفه ، وقال له : أأنت الذي كان يطوف عام أول وحاشيته تمنع الناس عنه ؟ فقال : بلى ، لقد تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعتني الله في موضع يعلو فوقه الناس !

خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ، والجواب : بلى يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير .

ولا شك أننا فقدنا كثيراً من أحببتنا لهذا السبب فالرجل لا يعرف ولده ، ولا يعرف ميوله ورغباته ، ولا يتابعه في نمو عقله ، وتطور مراحل فكره ، وهذا موجود عند بعض الناس بلا شك وقد يكون ذلك عن ضعف في شخصية الوالد مثلاً ، وقد يكون ذلك في الغالب عن عدم مبالاة واهتمام ، وهناك أنموذجان في حياة الأزواج ، أنموذج ناجح ، وهو الذي تتابعه زوجته ، وترقى معه ، وتصعد مع طموحاته وإنجازاته ، وتفرح بنجاحه ، وهناك أنموذج آخر من الفشل بمكان ، وهو محلك سر ، امرأة لا تراعي أن زوجها قد انتقل من مرحلة إلى مرحلة ، وأنه صار ذا مال وجاه وعلم ، فإن أشار أدنى إشارة إلى ما حباه الله به قالت له تلك العبارة : الله يرحم " أي : يرحم الله أيام زمان ، فهي تجره دائماً إلى الوراء ، فمثلاً إن قدمت له صنفاً من الطعام أو الشراب فعافته نفسه نظراً إلى أن معدته لم تعد تتحمل مثله الآن ، أو أنه يريد جديداً لطيفاً قالت له : منذ متى ، الله يرحم ، ألسنت كنت تعشقه ، وتقاتل من أجله (خلاص .. كبرنا واغتنينا واقترينا) كلمات تصد القلب وتسد النفس ، وما هكذا يكون الوفاق ، وهي ترى أن الزوج ليس عازفاً عن صنف الطعام أو الشراب ، وإنما هو عازف عنها ، ولم يعد يطيقها ، وبناء عليه لم يعد يطيق شيئاً من رائحتها هكذا رأت ، وتلك فلسفتها الموروثة عن أمها وخالتها وأطياف بيئتها والأعمال الدرامية التي تشاهدها ، والتي تقول : إن الزوج الذي فشلت الزوجة في نتف ريشه ،

فصار غنياً لا بد أن يلعب بزيله ، ولا بد أن يضيف إلى حياته امرأة أخرى غير تلك القديمة التي تحملته أيام فقره ، فهي مرحلة في حياته وانتهت ، وتلك فلسفة سوداء .

خربت عمراناً ، وحطمن وجداناً ، وأورثت بغضاً ، ومعظم الذين عاشوا أو يعيشون تلك المأساة فعلوا ذلك ، فتزوجوا أو والعياذ بالله صادقوا أجنيبات ، لا عن رغبة فيهم لذلك ، وإنما هو العناد ، والرد على فعل هذه الوراثة لتلك الثقافة العوراء .

وابحث إن شئت حولك وفي تجارب البشر حولك فلن تجد أحداً يعلم ما في نفسك ، وهو قادر على إسعادك غير الله ربك .

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

ويقول الله - تعالى - في آية البقرة (٢٣٥) : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

تأمل مثل هذه الآية في سياقها ، وفي كل سياق تجد أن الرجل قد يخفى رغبته في امرأة معتدة عن أقرب الناس إليه ، وقد يتوهم أنه لا رغبة له فيها فيما بينه وبين نفسه ، والله وحده يعلم ما في نفسه ، ويعلم أنه سوف يذكرها بعد حين ، فنبهه إلى هذا ، وقال : يجوز لك أن تعرض بخطبتك

نحو " مثلك سوقها رائجة " ، و " أنا أحتاج إلى امرأة صالحة " ، ونحو ذلك من المعاريض المشروعة ، لكن لا تصرّح بخطبة أثناء العدة ، ولا عقد إلا بعد استيفائها .

وأنا يطيب لي أن أذكر في هذا السياق أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما جاء في حديث البخاري حين جاءه جبريل - عليه السلام - بعائشة ملفوفة في حرير - في منامه - وقال : إكشف عنها ؛ فإنها زوجتك ؛ فقال - صلى الله عليه وسلم - إن كان من عند الله يمضه .

فقلب النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي لا ينام معلق بالحق - جل وعلا - وصدق الله العظيم إذ يقول له في آية الأحزاب (٥٠) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ ، ويقول في السورة نفسها الآية (٣٧) : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

ومعنى ذلك أن الله - تعالى - هو الذي زوج رسوله وهو الذي قال له في آية الأحزاب (٥٢) أيضاً : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ .

وقس على ذلك مثل رغبة إنسان في تحقيق ربح معين من صفقة معينة ، الله وحده يعلم ما في نفسه وإن شاء أمضاه ، وإن شاء حقق له

دونه ، أو أعظم منه ثم ما الذي يمنع أن يحقق الله تعالى له مبتغاه إذا التزم بمنهج الله - عز وجل - فهذا لون من ألوان رضاه ، وقد يرى عدم تحققه عذاباً له ، والله تعالى - يقول في آية النساء (١٤٧) : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ ، والذي يعلم الله ما في نفسه تجاه المرأة إذا التزم فلم يخطبها أثناء العدة ، قد يبسر له ذلك ربه إن كان زواجه بها فيه خير له وكذلك الذي يبتغي من الله الرزق إن كان ما في نفسه فيه خير له يسره له الله ، وإن كانت الأخرى ، فالخير ما اختاره الله له وتلك مسألة مهمة في حاجة إلى هذا الفقه ، أن يسعى راغب الربح على منهج الله ، بلا غش ولا غرر ، فإن وفقه الله - تعالى - إلى ما ترغب فيه نفسه فيها ونعمة ، وإن حصل غير ذلك رضي لأنه على منهج الله سار ، وعلى نور منه مضى ، فلا يصبر على ما في نفسه ، ويقول : دونه الأهوال ، ولا بد من القتال بل عليه أن يرضى إذ أخذ بالأسباب ، وتوكل على رب الأرباب .

وقد وجه الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت المقدس ، فامتلأ ، وفي نفسه رغبة للمسجد الحرام ، فأنزل الله - تعالى - قوله من سورة البقرة (١٤٤) : ﴿ قَدْ تَرَى ثَقْلَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتُوَلِّيْكَ قِبْلَةَ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فانظر كيف حقق الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - رضاه بعد أن امتثل لأمره ، ووجه وجهه حيث أمره الله - تعالى .

وفي آية البقرة (١٨٧) يقول الله - تعالى - : ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّقْتُ إِلَى نِسَانِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

كان أمر الصيام قبل نزول هذه الآية مختلفاً عنه بعد نزولها حيث إن الصائم كان إذا رجع آخر النهار ونام قبل المغرب واصل صيامه وشق ذلك على الناس فكان منهم من يختان نفسه ، فخفف الله عز وجل ، وأنزل هذه الآية رحمة بعباده ، وقد اعترف عمر - رضي الله عنه - للنبي - صلى الله عليه وسلم - أنه جامع أهله في رمضان بعد العشاء : فقام رجال ، فاعترفوا بمثله ، فنزلت الآية (من فضل العشرة ص ٧١)

وكثير من الناس نعلم أنهم إذا رأوا أحداً لم يلتزم بما فرضوه عليه عاقبوه بأشد مما فرضوه عليه ، لكن رب العالمين جل في علاه خفف عن الذين اختانوا أنفسهم ، كما حصل لمن بعدهم ولهم كفارة إن وقع ذلك منهم في نهار رمضان ، فبإجماع الفقهاء من باشر امرأته في نهار رمضان فعليه القضاء والكفارة وهي عتق رقبة أو إطعام ستين مسكيناً أو صيام شهرين متتاليين وحديث صخر بن سلمة في ذلك مشهور حيث ظاهر من امرأته في رمضان حتى يتمكن من صيامه وكان رجلاً لا يستغني عن تلك المباشرة ،

فلما جامعها ذهب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبين له تلك الكفارة فلم يقدر على شيء منها ، فأعطاه النبي الكريم تمرأ يطعم به ستين مسكيناً فقال له ما في المدينة بيت أفقر من بيتي : فقال أطعمه أهلك ، فعاد وقال لأهله الذين أبوا أن يصحبوه إلى النبي وقال لهم : لقد وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السعة وحسن الرأي .

بَلَّ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ :

في غرة أحد هتف الكافرون في وجوه المسلمين قائلين :

لنا العزى ولا عزى لكم

وأخبر المسلمون بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : هلا رددتم عليهم! فقالوا : وماذا نقول؟ قال عليه الصلاة والسلام : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم.

الله الله في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين نسمع أن خلقه القرآن ندرك أن مثل هذا الرد من القرآن أيضاً ، فالخلق منهج وبناء ، يشمل الفعل ويشمل كذلك القول ، والله تعالى يقول في آية آل عمران (١٠٥) : ﴿ بَلَّ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ويقول في آية محمد (١) : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ .

إن التعرف على الله - عز وجل - من هذا الباب غاية في الأهمية بالنسبة إلى مَنْ يَرجو مقتضيات الولاية من الرعاية والعناية والنصرة

والتأييد ، وما يحقق الحياة الكريمة بكل ما تشتمل عليه من معالم حسية ، ومعنوية .

فإن وليك من الناس إن قدر على إسعادك فيما يزعم ماديا عجز عن إسعادك معنويا ، ألا ترى إلى قول الله تعالى في أول آية من سورة محمد والثانية ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ فمن يصلح البال من أولياء البشر .

مقتضيات الولاية الربانية :

وللولاية الربانية مقتضيات ، ولكل ولاية مقتضى ، وأرى مقتضاها بين الناس غائبا ، فالولى اسم على ورق ، لا يتقى الله فيمن يتول أمره ، فيرعاه حق رعايته ، فيغذيه بدنا وبطنا ووجدانا وصدق الله العظيم إذ يقول في آية الإسراء (٢٤) : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

أعرف أناسا كثيرين من آباء وإخوة كبار لا يعرفون معنى الولاية إلا عند زواج البنت ، يغضب الولي ويعترض على اختيارها ، ويقول أنا أبوها ، أو أنا أخوها ، وهو الذى لم يذكر ذلك عند نعومة أظفارها ، ومراحل حياتها ، حيث كانت فى حاجة كامنة إلى بره وعطفه وحنانه وتوجيهه صحيح أن ذلك لا يلغى ولايته شرعا . وأنه يتولى عقد زواج ابنته أو أخته إذا كان أبوها ميتا ؛ إذ لا ولاية لغير الأب مع وجود الأب ، لكنه مسئول كذلك عن مقتضى تلك الولاية من العناية والرعاية منذ ولايتها ، لكن مع

الأسف لا نرى الكثير من الناس على هذا خصوصا السادة المطلقين ، الذين ينتقمون من بناتهم تبعا لانتقامهم من أمهاتهم ؛ فهو يرى أن ابنته عدو له ، كما أن أمها المطلقة عدو له كذلك ، فتتشأ البنت يتيمة مع وجوده وهذا الذى يسميه العلماء اليتيم الحكى ، أى فى حكم اليتيمة الضعيفة التى مات أبوها ، واليتيم الحكى أشد فى الغالب من اليتيم المضيفى ، لأن لليتيم المضيفى يجد من ينفق عليه ويرعاه ويبتغى بذلك وجه الله ، فمن لليتيم الحكى الذى هو أشبه بالمسكين الذى ليس عنده ما يكفيه ولا يسأل الناس ولا يفتن إليه أحد ، فيعطيه كما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الحديث الذى رواه البخارى "ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان والثمرة والثمرتان" .

ومن مقتضيات الولاية الربانية :

١- إخراج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور ، قال الله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: ٢٥٧ .

وقد توقف أناس عند معنى إخراجهم من الظلمات إلى النور على أنه إخراجهم من الكفر إلى الإيمان ، والحق أن المعنى يتسع لكل ما من شأنه الارتقاء بالإنسان ، من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات المرض إلى نور الصحة ومن غياهب الفقر إلى نور الغنى ، ومن ظلمات الفكر إلى صحيح الوعى والفقه ، ألا ترى إلى قول الله - تعالى - ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ

الْحَمِيدِ . اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إبراهيم : ١ ، ٢ .

والكتاب الكريم الذى أراد الحق - تعالى - أن يخرج به عباده من الظلمات إلى النور جامع مانع ، يدعو إلى العلم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر : ٢٨ .

وأول ما نزل منه قول الله تعالى : ﴿اقْرَأْ﴾ العلق : ١ .

ويدعو إلى التفكير والتدبر : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِثْلَى بَعْدَى ثُمَّ تَقُولُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ أَنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ سبأ : ٤٦ .

ويدعو إلى ما فيه خير الإنسان ، ﴿وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾ النساء : ١٢٨ .

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ البقرة : ١٨٤ .

وما فيه هداه : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة : ١٨٥ .

وما فيه رشده ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ الكهف : ١٠ .

وإلى ما يحفظ عليه نعمه ، بل إلى ما يزيدها ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم : ٧ .

وهكذا جميع ما فى القرآن الكريم من دعوة عن طريق الأمر ، والنهى والخبر ، والدعاء ، وقصص الأنبياء ، والسابقين يؤدى إلى هذه النهاية ، إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وأكرم بها من غاية تحقق كل المعانى الإنسانية والحضارية ، وما من شك فى أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور بمعنى إخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان فيأتى فى المقدمة ؛ لأن من شرح الله صدره للإسلام فهو على بينة من ربه ، ومن كان على بينة من ربه اتبع منهجه ، ومن اتبع منهجه ألا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض أى يؤمن بالكتاب كله ، وهذا يقتضى عموم النظر إلى الظلمات وسبيل الخروج منها .

٢- ومن مقتضيات الولاية الربانية النصر

ومن مقتضيات الولاية الربانية النصر والتأييد ، قال الله تعالى فى آيات الأعراف (١٩٥ - ١٩٧) : ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ . إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ . وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ .

كل من دون الله وما دونه تعالى لا يستطيع نصرنا ، ولا نصر نفسه ، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال : ١٠ .

وانظر إلى هذا الذى يمكن أن تسميه تحدياً ، وذلك قول الله تعالى : ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ﴾ فلا داعى إلى الإنتظار ؛ لأن قوة الله بلغة العوام : جاهزة ، فليس من كان الله - تعالى - وليه فى حاجته

إلى إنظار إذا احتكم الأمر ، ألا ترى إلى نصر الله المؤمنين يوم بدر على قلة عددهم وعتادهم ؛ فقد خرجت لهم فلول قريش ، وأفذاذها ، الملاء من أمثال عمرو بن هشام ، وأخيه أبى التجدى ، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وغيرهم من حلفائهم ، وأبوا إلا القتال ، فما كان إلا اللقاء الذى قاتلت فيه الملائكة مع المؤمنين بإجماع العلماء بعد القرآن الكريم ، حيث قال الله - تعالى - فى آيات الأنفال (١٢-١٤) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بَأْنَهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

عرض الولاية :

والناس لهم الاختيار ، إما أن يتخذوا الله - عزوجل - وليا لهم ، وإما أن يتخذوا الشيطان وليا من دون الله .

قال تعالى فى آية المائدة (٥٦) : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

وقال سبحانه فى آية الأعراف (٣٠) فيمن حق عليهم الضلالة : ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ .

ذلك ليعلم الإنسان أنه مخير ، وأن له إرادة ، وأنه هو الذى يختار ، وما يختاره الإنسان يوكل إليه ، وقد تبين المنهج ، مَنْ يتول الله ورسوله

والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله خسروا وخاب ولأن هذا كلام الله ، وكلام الله ليس ككلام الناس قال عزوجل : "ويحسبون أنهم مهتدون" أى أن الذين يتخذون الشياطين أولياء من دون الله يحسبون أنهم على هدى ، وما هم على هدى.

ومثل هذه الآية بمثابة التصحيح لمن يرجو التصحيح لذاته وصفاته ، ومنهج حياته .

قلما تجد فى كلام الناس مثل هذا الهدى فالناس فى الغالب يهجمون ويرجمون ، ويقولون فيمن أثر غيرهم عليهم : ضال ، ومارق ، وأبق ، وناس للجميل ، وقيل القطط تأكل وتتكبر ، ولا اصل لهم ، ولا معدن من المعادن الكريمة وغير ذلك مما هو معروف ، لكنه الله رب العالمين ، يكشف الحقيقة على أكمل وجه ، فيبين أن الذى يتول الشيطان أى يتخذ الشيطان وليا من دون الله يحسب نفسه على هدى وقد قال الله - عزوجل - فى آيات الكهف (١٠٣-١٠٦) :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا . ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ .

فانظر إلى قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وما أعظم النظم الجليل فى التعبير

بـ "يحسبون" و"يحسنون" حيث التناغم الموسيقى بينهما والذي يقرع الأسماع، وينبه إلى حال هؤلاء والسؤال المهم :

* لماذا يتخذ الضالون الشياطين أولياء من دون الله مع وضوح المنهج الرباني بأن حزب الله هم الغالبون؟

والجواب : أن من الناس مَنْ يرى بعينه ويأبى أن يرى بقلبه ، والذي يتخذ الشيطان وليا من دون الله هو من هذا الصنف .

والدليل على ذلك قول الله - تعالى - فى آية الحج (١١) :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ .

وسبب نزول هذه الآية يكشف عن هذه الحقيقة فقد قال جماعة من الأعراب : نذهب إلى المدينة ، وننظر إن أنتجت إبلنا وولدت نساؤنا ذكورا اتبعنا هذا الدين وإلا تركناه : فلا خير فيه ، وإذا لم يكن خير فى هذا الدين ففى أى شئ يكون الخير؟ إنه على زعمهم فى غيره ، وهل غيره إلا الضلال ، وهل الضلال إلا من الشيطان وانظر إلى المنافقين : لما رأوا الأحزاب ماذا قالوا؟

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الأحزاب : ١٢ .

وتأمل قول المؤمنين ، ماذا قالوا؟

قال الله - عز وجل - : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب : ٢٢ .

فالموقف واحد ، وأثره واحد ، بدليل قول الله - تعالى - : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ الأحزاب : ١١ .

لكن هناك فرق بين من يزلزل ماديا وهو ثابت ، ومن يزلزل ماديا ومعنويا ، إن الذى يتولى الله يعانى كما يعانى غيره ولكنه يرجو من الله ما لا يرجوه غيره ، قال تعالى فى آية النساء (١٠٤) : ﴿ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

والرجاء من أعمال القلوب ، فلا عين تراه ، وإنما ترى كل العيون أثره ، فأثره واضح وضوح الشمس فى الضحى ، حيث الثبات برغم الجرح ، والاطمئنان برغم القرح ، والاستبشار برغم بدو آثاره على العوز ؛ لأن فرج الله قريب ، والخير منه - تعالى - آت بلا ريب ، ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال ، فجنود ربك لا يعلم عددها إلا الله ، وهى فى انتظار الوحي . والوحي ليس ببعيد ، ومنها الريح التى تأتى إذا أمرها الله دون تأخير ، يرى مَنْ اتخذ الله وليا كل ذلك وكأنه رأى العين ، أما الذى يتخذ الشيطان وليا من دون الله فهو يطمئن للأسباب دون سواها ، هى وحدها تفرحه وتحزنه ، وتسعده وتشقيه ، إنه صدر خال من السعة ، خال من الأمل ، خال من الصبر تستطيع أن تقول : إنه ابن ساعته ، دائما

مستبعد قال المنافقون يوم الأحزاب : إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان
يعدنا بملك كسرى وقيصر ونحن لا نستطيع قضاء حاجتنا ظننا القاضية ،
ووصل الأمر ببعضهم أن قال كلمة الكفر ، قال : لقد كان ما يعدنا به محمد
(صلى الله عليه وسلم) حقاً لنحن أضل من الحمير ، دائماً أولياء الشيطان
على عجل ، ودائماً أولياء الله - تعالى - الذين اتخذوه ولياً دون سواه على
الأمل والأمل فى الله - عز وجل - عين الأمل ، والرجاء فيه سبحانه وتعالى
عين الرجاء ، ولكن المنافقين لا يعلمون ولا يفقهون ، ألا ترى إلى قولهم
الذى حكاه لنا الذكر الحكيم : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يُنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَا يَفْقَهُونَ ﴾ المنافقون : ٧ ، وفى الآية (٨) بعدما يقول جل وعلا :
﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والمنافقون وليهم الشيطان
وإخوانهم الذين يمدونهم بالغى يقولون : لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله
حتى ينفضوا وقال الله وصدق وآمن الذين اتخذوا الله ولياً "ولله خزائن
السموات والأرض" .

وقالوا : "ليخرجن الأعز منها الأذل" وقال الله وصدق الذين اتخذوا الله وليا : "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين".

التعرف على الله عز وجل على علم :

إن المتأمل في كتاب الله - عز وجل - يجد دعوة الحق سبحانه إلى العلم من أهم دعائم التعرف عليه جل في علاه ، ولنا أن نقف عند هذه الآيات في ضوء هذا السياق .

[illegible]

فهذه دعوة إلى التعرف على الله عز وجل على علم ، إذا علم الإنسان أن الله وحده هو القادر ، وأن غيره لا يقدر وأن النفع من عند الله وحده ، عبد الله على بصيرة فما يستوى العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، ومن رزقه الله رزقا حسنا ، فلا يفتق منه سرا وجهرا ، ولا يستوى الأسيء الذي لا يقدر على شيء ، وهو حمل على مولاه أينما يوجهه لا يات بخير ، ومن أوتي الفصاحة والعدل ، وهو على صراط مستقيم.

فى الآية (٢٦) يقول الله - تعالى - : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ جعل الله داود - عليه السلام - خليفة ليحكم بين الناس بالحق ونهاه سبحانه وتعالى - عن اتباع الهوى وعلة النهى عن اتباع الهوى أنه يضلّه عن سبيل الله وهنا مأساة يقع فيها كثير من الناس ، هى أنهم لا يظنون أنهم ضلوا عن سبيل الله .

١- فهم يحكمون وفق الهوى ويظنون أنهم يحكمون على هدى .

٢- وأنهم يرون أن فلاناً مثلاً عليه الحق ، لكن الحكم لصالحه نافع ، فالآخر يستحق قطع رقبته .

يقولون : فلان إذا أخذ هذا المال فسوف يضيعه أما فلان فإن أخذ هذا المال فسوف ينفقه على المساكين واليتامى ، وكذا ، فيحكم بالباطل ، ويعطى الحق لمن ليس له متوهماً أن ذلك من الدين ، وما هو من الدين ، ألا ترى إلى قول إخوة يوسف له : ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فما قال ؟

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ﴾ .

فانظر كيف أرادوا أن يجعلوه ظالماً تحت شعار الإحسان .

هناك موظف لعوب ، لا يهتم بعمله ، ولا يؤديه على الوجه الذى ينبغى أن يكون عليه ، ويريد رئيسه أن يعطيه درجة معينة فى تقريره السنوى هو لها أهل ، فيشفع له الناس عنده قائلين : إن ذلك يؤثر على مستقبله ، فأعطه درجة "ممتاز" حتى لا تقف حجر عثرة فى طريقه ، وتكون السبب فى عدم ترقيه ، فمن الذى ظلم نفسه ، هل ظلم الموظف نفسه إذ قصر فى أداء عمله ، أم ظلمه رئيسه الذى يريد أن يعطيه ما يستحق ؟

أى الرجلين ظالم ؟

كثير من الناس يفعل هذا ، ويظن أنه حكم بما يرضى الله ، هكذا يقول : "بما يرضى الله" فهل هذا فعلاً ما يرضى الله عز وجل ؟

أم أنه مما يرضى الهوى ! ، وكم من أحكام هى من الهوى ويظن أصحابها أنها من الهدى ، وما هى من الهدى فى شئ من أجل ذلك كان الحكم بالهوى وفق البيئة وما قرره الشرع من أصول معروفة دون نظر إلى هنا أو هناك ، إلا على شرط النظر الذى يكون فى خدمة القضية ، لا فى تتبع أحاديث النفس الأمارة بالسوء ، وموافقة أهل الأهواء والبدع .

والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق :

فى آية النحل (٧١) يقول الله - تعالى - ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

والرزق : كل ما ينتفع به ، من مال ، ومن عمل ، ومن زوجة وولد ، وصاحب ، فالصاحب رزق ، والزوجة الصالحة رزق والولد البار رزق ، والوالد العطوف رزق ، والأم السوية رزق ، والمال الصالح للرجل الصالح رزق ، والقضية التي تشغل كثيرا من الناس هي قضية المال ؛ لأنه قوام الحياة وصلبها ، وما لا يعلمه الناس معظمهم أن التفضيل كما يكون في الكثرة يكون كذلك في القلة ، فمن الهدى النبوى : " قليل يكفيك خير من كثير يطغيك " .

والرزق ما يكتفينا به من المال وإن كان قليلا
لا تكفينا قال الله تعالى : (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَلَغُوا فِيهِ الْمِقْدَارَ)
ولكن يعزّل بقدر ما يشاء إله بعباده خبير بصير .

ما أحدٌ آمنٌ من الله عزوجل ، وما أحد أرحم منه بعباده عزوجل ، لكن الله الحكيم ، رب العالمين ، والحكيم ذو الحكمة يضع الشئ موضعه ، وهو بخلقه عليم ، سبحانه وتعالى ، عما يظن الظانون علواً كبيراً ، وقد قل من يرى تلك الحكمة ، ويدرك أن في تلك القلة تفضيلاً عظيماً ، فالقليل الذى يكفى خير من الكثير الذى يطغى ، وقولنا " خير " دلالة على التفضيل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، إذ توقفوا عند الزيادة فظنوها مناط التفضيل دون سواها ، وترتب على ذلك تغافلهم عن شكر الله عزوجل - على نعمه القليلة لا تحصى ؛ إذ لا يتسنى شكر النعمة فضلاً عن الشكر على العجز عنها إلا إذا أدرك المنعم عليه أن عنده النعمة ، وأنه مفضل مكرم ، عندئذ يشكر ربه الذى أنعم عليه وفضله .

وكذلك يكون التفضيل فى المال بحسب نوعه ، فربما كان مال الرجل من الغنم خيراً له من الإبل ؛ إذا كان يحسن رعايتها وكان فى بيئة صالحة لرعايتها ، وقد توفر فيها الكلاً والماء وقد يكون صاحب العقار مفضلاً على صاحب الأرض الزراعية والعكس ؛ ففى التفضيل نظر باعتبار المصلحة والتناسب .

وقد تكلم الفقهاء فى الحرف ، أيها أفضل من بعض ففضل بعضهم الزراعة على التجارة ، وفصل آخرون التجارة عليها ، ولكل وجهة فى هذا التفضيل ، فقد ذهب من فضل الزراعة إلى أنها تقوى صلة المزارع بربه ، حيث إنه يبذر البذرة ويدعو ، فإذا نبتت تطلع ودعا ، فإذا أخضرت وترعرعت وأثمرت حمد الله ، وإذا حصدها سليمة من الآفات شكر الله وهكذا .

وأنا أقول : الحرفة المفضلة هى التى يجيدها من يمتنها وتكون عوناً له على طاعة الله ، ولن يعدم كل ذى حرفة تفضيلاً بناء على ذلك ، وفى النهاية لا تحتقر حرفة ولا صناعة ؛ لأن كل الحرف ضرورية فى الحياة ، وواجب توافرها ، لمصلحة الناس وإن كانت من فروض الكفايات كما هو معلوم .

وقد يكون التفضيل فى الزواج بما يصلح حال المتزوجين فرب أمية لا تقرأ ولا تكتب ، أنفع لزوجها من حامللة الدكتوراه فالعبرة هنا كالعبرة فى المال ، وقد تكون الصحة تفضيلاً للصحيح إذا كان يستثمر هذه العافية فى طاعة الله - عزوجل - وخلاصة القول أن كل ما يستفاد به من رزق تعرف

أنك مفضل فيه إذا كان عوناً لك على طاعة الله عز وجل وابتغاء مرضاته ،
والدليل على ذلك قول الله - تعالى - ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة : ٥٥ .

فأى تفضيل للمنافقين في الأموال والأولاد وهى عذاب لهم في الحياة الدنيا ، ونهايتها أن نزهق أنفسهم وهم كافرون وكذلك ما قيمة الأولاد وهم بين أمرين:

١- شهود مع عقوق

٢- وسفر مع طول وداع

إن من التفضيل في النعم أن يرزقك الله بنين شهوداً ، ليسوا في حاجة إلى سفر بعيد ، وهم شهود مع بر وطاعة ، ألا ترى إلى قول الله - عز وجل - في آيات المدثر (١١-١٦) : {ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا {١١} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا {١٢} وَبَنِينَ شُهُودًا {١٣} وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا {١٤} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ {١٥} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} قال تعالى : "وبنين شهوداً" وقال المفسرون في معناها : أعطاه الله بنين حاضرين ملتفين حوله ، يسمعون له ويطيعون ، ويمتثلون وكذا أعطاه المال الكثير الممتد ، ووسع له ، ويطمع في المزيد .

ولا مشكلة في أن يزيده الله عند الله ، معاذ الله ، إنما المشكلة عنده ، في دمه ، وفي فكره السيئ ، حيث كفر بآيات الله عناداً وتكبراً ، ومراء ،

أنظر إلى قول الرزاق ذي القوة المتين : كلا أى : لا ما قال الله : كلا إن عنده ما يكفيه وزيادة وما قال الله : كلا ؛ إنه طماع .

ولا غير ذلك من نحو هذا ، وإنما قال : كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، فانظر في سياق التعرف على الله عز وجل إلى تلك العلة التى كانت سبباً في "كلا" أى في "لا" أى في النفي ، واسأل الله ما تشاء من فضله مادامت مؤمناً به وبكلماته ، ولا يكن في صدرك شك ولا شئ من ريب ثم انظر إلى هذه الآيات ، هل ترى من نزلت فيه مفضلاً أو في نعيم من العيش ، وقد قال الله فيه بعد هذه الآيات من سورة المدثر الآيات (٢٦-٣٠) : ﴿سَاقِطَةٌ سَقَرٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ﴾

لاشك أن هذه النهاية المحققة الوقوع لا خير قبلها يمكن أن يطلق عليه خير ، فلا خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة .

والتفضيل في القرآن الكريم والسنة المطهرة ثابت ، ونحن نجد لذلك علة ، وأحياناً لا نجد هذه العلة ، وهذا معناه أننا نسلم بتفضيل ما لم تذكر فيه العلة ؛ لأن مرجعها إلى حكمة البارئ جل وعلا ، ونحن به مؤمنون ، وبتفضيله راضون .

١- فمما فضل وذكرت علة بيت الله الحرام ، وذلك لأنه أول بيت وضع للناس ، وذلك باختيار رب الناس ، كأن يقال كل المساجد بيوت الله ، وكلها شريفة ، وكلها مكرمة ، وأفضلها وأعلاها على الإطلاق بيت الله

الحرام ، والسبب أن بيت الله الحرام باختيار الله ، وغيره باختيار العباد ، وللزركشى فى كتابه إعلام الساجد كلام طويل فى بيت الله الحرام لمن أراد أن يطلع عليه ، وفى الحديث : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى .

٢- وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ، والعلة ظاهرة حيث إن المجاهد على خلاف القاعد ، قال تعالى فى آية النساء (٩٥) : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

٣- وفضل الله - تعالى - ليلة القدر ، وجعلها خيراً (أفضل) من ألف شهر ، والعهدة نزول القرآن فيها { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ } .

أم أن الخلاف نار ، وعدوان ، وبغى ، وأنت إذا لم تكن معى كنت بالضرورة ضدى ، وعدوى !

إن الدرس العظيم المستفاد من هذا التفضيل مهم في حياتنا وإذا كان هناك شيء يجمعنا لم نعدمه ، إن لم يكن في النسب كان في الدين ، وإن لم يكن فيهما كان في اللغة ، أو في الجوار ، أو في الإنسانية .

ويجب أن تكون المصلحة مصلحة الوطن ، الذى يعمل فيه الجميع ،
ويحرص عليه الجميع ، ولا بد أن يحصل الوطن على ما يحصل عليه الناس
من ثمرة الخلاف، أى لابد أن يحصل على اللؤلؤ والمرجان من غرب أبنائه
وملحهم .

لو تفكرنا في هذه الآيات ، وفي غيرها ، كالليل والنهار ، لا يستويان ، ولكن فيهما منفعة ، الليل لباس والنهار معاش .

ضيقنا العمر في المفاضلة دون ثمرة ، ولم نضيع العمر في المفاضلة مع العناية بالثمرة التي لابد منها ، أنظر إلى قوله تعالى من آية الرعد (٤) :

{وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

يعقلون قدرة الله العظيم الذى فضل بعض النباتات على بعض مع أنها جميعاً تسقى بماء واحد .

ويعقلون أمر التفضيل بصفة عامة ، فليس الفاضل بمأخوذ وليس
المفضول بمرمى يداس عليه ، وكم من عشاق للمفضول .

وقد قال أبو الهيثم التيهانى - رضى الله عنه - حين جاء بصنوف التمر وألوانه للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليأكل كلُّ مشتتهاه يا رسول الله، حين قال له - صلى الله عليه وسلم - هلا انتقيت رطباً؟ أى كان يكفى

أن تأتينا ببعض الرطب وكان معه - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

فالذى تحبه أنت لا يحبه غيرك ، وما لا تحبه أنت يشتهي غيرك ، وهكذا ، ومن ثم ، تنوعت ألوان الناس ، وألسنتهم كما تلونت ألوان الأرض، والنباتات ، لا لتأخذ ما تحب وتصحب من تراه أهلاً لصحبتك ، وتأكل ما تشتهي ثم تدوس على ما لا تحب ، وما ذلك إلا لأنك نسيت أن هناك من يحب ما لا تحب ، فإن كنت حريصاً على ما تحب فكن كذلك حريصاً على ما يحب غيرك .

وقد رأينا من بعض الناس انحرافاً في هذا حيث يشتري من السلع والمأكولات ما يحبه هو دون مراعاة لزوجته وولده ، ففيهم من لا يحب ذلك، ولا شك أن هناك أسوياء ، يشترون ما تحبه زوجاتهم وأولادهم ويحب ذلك ؛ لأنهم يحبونه وإن كان لا يأكله .

الفصل الثاني

ماذا قال الله؟

وقال الله :

القرآن الكريم كله كلام الله ، وكل حرف فيه معجز ، وكل كلمة ، وقراءة حرف منه بحسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، لكن لجملة (قال الله) مذاق جديد ، فهلا تعرفنا عليها من خلال القرآن الكريم ، وتعرفنا أكثر وأكثر على الله ربنا إذ قال ربك للملائكة .

قال ربنا للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، وقال لهم حين قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك : إني أعلم ما لا تعلمون .

وبعد أن علم آدم الأسماء كلها قال ربنا للملائكة أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، فلما قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

ثم قال ربنا تعالى للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا أجمعين إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقال ربنا - تعالى - لآدم : اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهما رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فلما أزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه قال ربنا لهم : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، ثم قال : اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف ثم قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ،

عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

قال الله - تعالى - في سورة البقرة الآيات (٣٠-٣٩) : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .

فانظر إلى قصتنا ، قصة الخلق ، كيف كانت قولاً من الله ، وكيف تكرر هذا القول ، كيف قال الله : يا آدم أنبئهم بأسمائهم؟ وكيف قال : اسجدوا لآدم ، وكيف قال : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة .

حتى حين تاب عليه لقنه كلمات ؛ فتاب عليه أى أنه قال له كلمات ،
فتاب الله عليه بها ، قيل هذه الكلمات هى الواردة فى آية الأعراف (٢٣) :
{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} .

وفى قصة البقرة حين قال موسى - عليه السلام - لقومه : إن الله
يأمركم أن تذبحوا بقرة ، فلما قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال :

{إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا قَارِضٌ وَلَا بَغْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا
تُؤْمَرُونَ} البقرة : ٦٨ .

فلما قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال : {إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
صَفْرَاءٌ فَاقِيعٌ لَوْنُهَا تَسْرُّ النََّاظِرِينَ} البقرة : ٦٩ .

فلما قالوا له : ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن
شاء الله لمهتدون قال : {إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا
يَفْعَلُونَ} البقرة : ٧١ .

ثم قال الله لهم : {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى
وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} .

فانظر كيف تطور القول الجليل بناء على تشدهم على أنفسهم ، ولو
ذبحوا أى بقرة لأجزأتهم ، فمن عسر عسر عليه ومن يسر يسر الله له .

وقال الله عزوجل فى سور متعددة لإبليس ، {مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ
أَمَرْتُكَ} الأعراف : ١٢ .

{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} الأعراف : ١٢ .
{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
الصَّاغِرِينَ} الأعراف : ١٣ .

فلما قال إبليس : {فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ} الأعراف : ١٤ .

{قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} الأعراف : ١٥ .

فلما قال إبليس : {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} {١٦}
ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
أَجْمَعِينَ} الأعراف : ١٨ .

وقال الله عزوجل لإبراهيم - عليه السلام - {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا} البقرة : ١٢٤ .

فقال قال : ومن ذريتى .

قال : {لَا يَتَّالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} البقرة : ١٢٤ .

وقال إبراهيم : {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ
آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} البقرة : ١٢٦ .

قال الله عزوجل : {وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ
وَيَبْسُ الْمَصِيرُ} البقرة : ١٢٦ .

وقال الله - تعالى - لإبراهيم : {أَسْلِمَ} البقرة : ١٣١ .

فقال عليه السلام : {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} البقرة : ١٣١ .

وفى سياق هذا الأمر والامتنال له يقول الله تعالى فى آية البقرة :
(١٣٠) : {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ
فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} .

ثم قال تعالى فى الآية بعدها (١٣١) : {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ
أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} .

كان خلاصة الملة فى هذه الآية : أسلم ، قال أسلمت ، فمن رغب عن
هذا فقد حكم الله عليه بالسفه نعم إن السفية بحق هو من أمره الله بأمر فلم
يمتثل له ، وما أكثر ما أمرنا به ربنا - عزوجل - من كل شئ فيه خيرنا .

فقد قال الله : {لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيايَ
فَارْهَبُونِ} النحل : ٥١ .

وعلى المخاطب أن يقول كما قال إبراهيم : لا اتخذ إلهين اثنين . وقال
الله {وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي
وَعَزَّيْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ} .

فانظر ماذا قال الله هنا فى هذه الآية الكريمة ، وما أن الامتنال لقوله
عزوجل ، فمن قال آمنت بالله ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة وأقرض الله

قرضا حسنا كفر الله عنه سيئاته ، وأدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ،
ومن كفر فقد ضل سواء السبيل ، ومن ضل سواء السبيل فقد سفه نفسه .

ونادى الله عزوجل إبراهيم ، أن قال له ، وذلك باعتبار أن (أن)
المعزة هى المسبوقة بمعنى القول دون حروفه وذلك فى قوله - تعالى - :
{وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}
الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥ .

فكما قال إبراهيم أسلمت لرب العالمين حين قال له ربه أسلم هم بذبح
ولده حين رأى فى منامه أنه يذبحه - ورؤيا الأنبياء حق ، أى وحى ،
وليست أضغاث أحلام ، وهذا مما يقتضيه الإسلام ؛ ليعلم الناس الذين
يريدون أن يتعرفوا على الله أن المسألة ليست فى قول أحدهم : أسلمت ،
وإنما العبرة فى مقتضى القول ، والدليل على ذلك هذا الذى رأينا من قصة
إبراهيم - عليه السلام ، قال : أسلمت لرب العالمى ، وعمل بمقتضى
إسلامه ، فنجح فيما سماه الله - تعالى - {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ}
الصافات : ١٠٦ .

ولعل سائلا يسأل : كيف يكون هذا بلاء عظيمًا وقد فداه الله بذبح
عظيم ، ولم يذبح إبراهيم ولده؟ والجواب : أنه كان صادقًا فى ذبحه ، فكأنه
بالفعل ذبحه ، وتلك لطيفة نحن جميعًا فقراء إلى الاقتباس من نورها ،
والإفادة منها ، فمن صدق الله صدقه الله كما قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - والله أهل العفو وأهل المغفرة ، ونحن جميعًا فى حاجة إلى
العمل بمقتضى ما نقول ، انظر إلى قول من يشهر عقد زواج قبل أن يشهره

والناس يرددون وراءه : نستغفر الله العظيم ثلاثاً ، تبنا إلى الله ، ورجعنا إلى الله وندمنا على ما فعلنا ، وعزمنا على أننا لا نعود إلى ذنب أبداً ، هتاف جميل ، فهل رأيت أحداً من الذين ضاقت بهم القاعة صادقاً فيما يقول؟

بمعنى : هل رأيت أحداً فيهم رد مالا أخذه ظلماً وعدواناً وقال هذا تصديق توبتي التي أعلنت اليوم في عقد قران فلان وفلانة؟
هل رأيت أحداً من هؤلاء صد ونأى عن عمل لا يرضى الله في ذات الليلة كان قد عزم عليه قبل ، وقال أنا قلت اليوم تبت إلى الله؟

ناهيك بالمنهج العام الذي رسمه رب العزة من مقتضيات الإيمان من صحة العقيدة ، والإسلام من صحة العبادة والمعاملة من كل جانب على حسن المعاشرة ومكارم الأخلاق . إن كثيراً من الذين يقولون : لا إله إلا الله في كل وقت وحين فيهم مَنْ يعتقد في خرزة زرقاء ، وفيهم مَنْ لا يقيم الصلاة إلا في رمضان ليبارك بها صومه ، وفيهم من لا يصلي أصلاً ، وفيهم مَنْ لا يخرج زكاة ماله ، وفيهم من يستطيع الحج ولا يحج ، وفيهم من يقيم الشعائر جسداً بلا روح ، فهو يصلي ولا تنهأ صلاته عن الفحشاء والمنكر ، ويصوم ولا يتقى الله ، ويحج ويرفث ويفسق ويجادل وينازع ، ولا يمسك لسانه حتى في يوم عرفة إلا عن ذكر الله والدعاء ، بل يتكلم في كل شيء وينال من كل عرض .

وفيه من يصر على الغش والضرر ، والفساد ، فهل تغنى "لا إله إلا الله" باللسان عن كل غريمة هي الدين!

وفي شئون الحياة فساد كبير ، يدل على تلك المفارقة بين القول والعمل ؛ فالذى يعد المرأة قبل الزواج بإسعادها يعمل على إتعاسها ، والتي تعد الرجل قبل الزواج بأن تكون عينا ساهرة على راحته تنام ملء الجفون ، وتشقيه فلا تسره ، وتتعسه فلا تسعده ، والذي يقسم لك بالله أن سلعته من اليابان رأساً أقسم لك وهو كاذب حيث إنها مصنوعة تحت سلم من سلالم شبرا الخيمة ، وقد صلى الصبح ، وقال : اللهم ارزقنا.

والجار الذي أوصاه الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم لا يحسن إليه ، ولا يتقى فيه ربه ، ولا يعينه ، بل يذيقه صنوف الذل والهوان ، ويطلع على عوراتهم ، ويفضحه لأدنى ملا لعبته هذا ليس بمقتضى إسلام ، والذي يقف ويقول : بلادي بلادي لك حبي وفوادي هو من يخون بلاده ويسرق أراضيها ، والذي يرشح نفسه لمنصب من المناصب ما قصد إلا مصلحة نفسه .

وقال الله للذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت : موتوا ؛ فماتوا قال تعالى في آية البقرة (٢٤٣) : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } .

ما أعظم قول الله ، يا مَنْ ترغب فى التعرف على الله ، هؤلاء ألوف خرجوا من ديارهم حذر الموت ما أرسل الله عليهم طيراً أبابيل وقد فعل {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} .

وأرسل على عاد الرياح العقيم {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَّخْلٌ خَاوِيَةٌ} {٧} فهل ترى لهم من باقية؟ الحاقة : ٧ ، ٨ .

وجعل ربنا تعالى قرية أصحاب لوط عليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، قال تعالى آتت هود : ٨٢ ، ٨٣ {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَّطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ . مُّسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} .

وخسف الله - تعالى - بقارون وداره الأرض ، {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} القصص : ٨١ .

وقد جمع ذلك ربنا تعالى فى سورة العنكبوت حيث قال فى الآيات (٣٨-٤٠) : {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ قَصَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ

وَهَامَانَ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذْنَا الصِّحَّةَ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} .

فإذا ضمنت هذه الآيات إلى آية البقرة {فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَاتُوا} تعرفت على الله - تعالى - فى إهلاكه مَنْ ظلم ، فهو عزوجل يرسل فى الهلاك سبباً ، كما فى هذه الآيات ، أو يقول لعباده مواتوا بلا سبب يرسله ، فإذا بهم يموتون ، كما أن النار يطفئها الماء بإرادته تعالى ، ويقول لها كونى برداً وسلاماً دون أن يصب عليها مادة تجعلها كذلك ، قال تعالى فى آية الأنبياء : ٦٩ {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} فكانت برداً وسلاماً عليه .

وكما يكون ذلك فى الهلاك يكون فى الإحياء ، فالله عزوجل يحيى عباده بالأسباب ، فإن يعملوا ، وابتغوا من فضله ، قال تعالى فى آية الملك : (١٥) : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} وقال فى آية الجمعة (١٠) : {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} .

وقال فى آية الطلاق (٣) : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} .

وقال في آية آل عمران (٣٧) : {كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} .

ونحن بلا شك وإن أخذنا بالأسباب في أشد الحاجة إلى كلمة من الله ، أن يقول الله عز وجل لأمرأنا العضال : اذهبي فتذهب ، وأن يقول لأعدائنا الظالمين ونحن نجاهدهم : موتوا فيموتوا قبل أن تصل إلى نحورهم أسلحتنا ، وقد حدث هذا يوم بدر ، يوم التقى الجمعان ، كان بعض الصحابة يقول : كنت أقصد بعض الكفرة لأقتله ، فتطير رقبتة قبل أن أصل إليه ، فعلمت أن الملك سبقني إليه ، وأن يقول الله لزرعنا ونحن نسقيه ونرعاه : انم فينمو ، وأن يقول لشبابنا ونحن نعلمهم : اهتدوا فيهتدوا ، روى الذهبي في سير أعلام النبلاء أن أحدهم قال وهر يوجه ولده : يارب تعبت ، فربه لى ، وكان ابنه مسرفا لاعبًا ، قال : فلما أصبحت وجدته في السوق ، فقلت : ماذا تفعل هنا؟ فقال : أحمل متاع الناس بدرهم حتى أعينك يا والدى على المعاش ، قال : فبكيت ، ورق قلبي له ، وقلت له : ليس إلى هذا الحد ، تعال فقد استجاب الله دعائي لك ، وصار من ذلك اليوم جادًا مهذبًا ، نحن في حاجة إلى كلمة من الله تنير لنا الطريق ومن الدعاء : "اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه" فالله عز وجل قادر على أن يرى عبادة الحق حقا ، وأن يرزقهم اتباعه ، وأن يريهم الباطل باطلا ، وأن يرزقهم اجتنابه ، فاللهم تقبل منا هذا الدعاء ، واقدر لنا الخير حيث كان ، أنت سبحانه ولى ذلك والقادر عليه .

وقال الله عز وجل بنا الفاعلين دلالة على العظمة ، وهو أهل العظمة كلها لموسى عليه السلام إذ استسقاها قومه : {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ} البقرة : ٦٠ .

فانظر كيف قال ربنا ، وكيف تحقق ما أراد سبحانه وتعالى ، أن يضرب الحجر بعصاه المباركة ، فإذا الحجر عيون ماء ، وما شك عباده الذين سقاهاهم إلا أن يأكلوا ويشربوا من رزق الله ، وألا يعثوا في الأرض مفسدين ، فما أعظم النعمة وما أيسر المطلوب .

وقد أهلك الله تعالى فرعون ، وقال لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جننا بكم لفيها {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جَنَّا بِكُمْ لَفِيفًا} الإسراء : ١٠٤ .

وسأل موسى - عليه السلام - ربه تعالى أن يراه ، {قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظِرْ لِيكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} . قال يا موسى إني اصطفيك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} الأعراف : ١٤٣ ، ١٤٤ .

ما قال الله : لن تراني حرمانا لموسى من رؤيته وإنما إشفافا عليه ورحمة به ، فلن يقوى على رؤيته كما يقول أهل النعيم في الجنة يرونه

حيث يرون الهلال دون ضرر ، فتلك نشأة أخرى ، وفي سياق التعرف على الله ذى الجلال نذكر قوله تعالى فى آية الأنعام (١٠٣) : {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} .

وحين سأله تعالى إبراهيم - عليه السلام - أن يريه كيف يحيى الموت ما قال له : لن أريك ؛ لأن هذا ممكن بخلاف رؤيته عزوجل ، وقد سأله وهو بكل شئ عليم : أو لم تؤمن؟ البقرة : ٢٦٠ .

فقال : بلى . البقرة : ٢٦٠ ولكن ليطمئن قلبى - البقرة : ٢٦٠ .

قال الله تعالى : {قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

وقال الله للذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، ثم قال له : كم لبثت؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم .

قال الله تعالى : بل لبثت مائة عام ، ثم أراه كيف يحيى الموتى من خلال حماره ، الذى صار عظاماً نخرة ، فكساه لحماً ، ثم قام من فوره أمامه ، {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ

نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهُهَا لَحْمًا قَلَمًا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ البقرة : ٢٥٩ .

وبمناسبة قول الله - تعالى - "بل لبثت مائة عام" أقول : إن (بل) التى يعرفها اللغويون بأنها للإضراب وراءها درس عظيم نحن فى حاجة إليه فى تغيير نمط الأسلوب الذى اعتدناه فى مثل هذا الحوار ، ولتوضيح ذلك أقول : لو أن رجلاً قاد سيارته وإلى جواره ابنه أو ابنته وسأله هذا السؤال : كم قطعنا من المسافة ؟ فقال أو قالت :

قطعنا خمسين كيلو متراً ، وكأن المقطوع مائة أو أقل من المائة كان رده :

- نعم نعم ، يا نائم ، يا جاهل ، يا غبى ، أعوذ بالله ، خمسين فيم تفكر ، من أخذ عقلك ، انظر انظر إلى العداد ، لقد خرجنا من مكاننا وكانت قراءته كذا ، والآن ما قراءته؟ ألا ترى ، لقد قطعنا مائة كيلو لا خمسين .

ولو أننا أردنا استثمار المعارف القرآنية وحاكيناً أعلى ما يحاكي وهو الكتاب العزيز لكان الحوار هكذا :

- أتدرى كم قطعنا ؟

- خمسين

- بل مائة

وحمدا لله ، وانشغلنا بموضوع آخر ، وتلك ثمرة من ثمرات قال الله ، أن يتغير نمط كلامنا ، ويتغير لنقيده مقتضاه بأن تقلب الصفحة ، وأن تستثمر الوقت في شيء جديد ، كما قال الله لبني إسرائيل على لسان رسولهم موسى عليه السلام إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، لو ذبحوا أى بقرة لانتهت المسألة ، ولكن كما سبق وقلت : عسروا ففسر عليهم .

حتى في قصة إبراهيم وإحياء الموتى ، قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى؟ قال الله له : أولم تؤمن؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي .

وفي مثل هذا الحوار ، لو قال إنسان لصاحبه أرني كيف تصنع كذا؟ لو قال له: أو لم تعرف أني صانع فقال : بلى ولكن لأرى بعيني لقال له : وما فائدة رؤياك بعينيك وقد عرفت لاشك أن قلبك في شك ، لاشك أن فلانا أخبرك أني لست أنا الصانع حتى يقول له ، مَنْ سألته : حقك على وأنا غلطان ، وابن غلاطين ، لم يكن سؤالاً ، أنا آسف أنا أعذر ، أنا ماشى من هنا .

عشرات النماذج من الحوارات الفاشلة التي تنقلب إلى مأس في النهاية، فما رأينا أنفسنا في الحوار على منهج الله - عزوجل - ولذا تخبطنا، وخير مثال على ذلك ما جاء من قول الله تعالى لإبليس ، حيث سألته عن سبب عدم سجوده لآدم ، فتعلل بأنه خير منه ، ثم قال لله - تعالى - فأنظرني إلى يوم يبعثون ما قال له الله : ولم أنظرك ، بل سأحرقك الآن وإنما قال له : فإنك من المنظرين ، وأنظره تعالى ، وهذا من تعرفنا على

الله عزوجل أنه الصبور ، ومعنى الصبور في حقه - تعالى - المؤجل ، لأن أمر كل شيء ومخلوق إليه .

ألا يفيد من ذلك الرجل الذي يعرف أن ما تأخذه زوجته عائد إليه في بيته ، وما يمهلها من وقت لولده إما على سبيل إعطائه في حقه ، أو على سبيل اختباره لن يضره في شيء ، فما الداعي إلى العجلة في كثير من الأمور التي لا تستحب فيها العجلة؟ وما الداعي إلى التعسف .

وانظر إلى قول المشركين الذين إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها .

أمر الله عزوجل رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ } { ٢٨ } قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ { الأعراف : ٢٨ ، ٢٩ .

فانظر إلى هذا التوجيه الإلهي السديد في مواجهة منكر قاله الذين أشركوا "والله أمرنا بها" كيف كان الرد : "إن الله لا يأمر بالفحشاء" .

وقد تجلّى ذلك في سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن أمثلة ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد ، حيث هب الناس ، وأرادوا أن ينالوا منه ، فمنعهم صلى الله عليه وسلم وقال : لا تفسدوا على الرجل بولته، ثم أمرهم أن يصبوا عليه ذنوبا (دلوًا) من ماء طهارة له ، ثم قال له : إن المساجد لا تصلح لشيء من هذا ، إنما هي لذكر الله والصلاة .

ويقيني أن هذا الدرس لا ينسى أبداً عند الأعرابي وعند مَنْ وعاه من الناس ، لأنه الدرس المغلف بالرحمة ، المركز عليه دون سواه ، وكم من دروس غلفت بالنهاي والاستنكار والقسوة فتنوسيت وبقيت الغلظة ، فنحن نقول للتلميذ إذا أخطأ : يا أعمى ، يا غبي ، يا جاهل ، هذه ذقني إن نفعت ، الصواب كذا ، فإذا به ينسى هذا الصواب لكنه لا ينسى يا غبي ، يا جاهل ، هذه ذقني إن أفلحت.

وقد جاء وفد إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له يريدون أن يرخص لهم في ترك صلاة العشاء؟ لأنهم يحلبون إبلهم وينامون ، ويرون أنه لا وقت لديهم لصلاة العشاء ؛ فقال صلى الله عليه وسلم - تحلبون إبلكم وتصلون إن شاء الله ، وقد كان ما قال كما تقول : نعم نعم ، أرخص لكم في ترك العشاء ، أي خبل هذا ، وماذا أفعل لو جاءني غيركم وقالوا : رخص لنا كما رخصت لهم ، أو جاءني آخرون فقالوا رخص لنا في ترك صلاة الفجر وهكذا ، بهذا يفرغ الدين من محتواه يا أيها المسلمون ، قوموا قوموا وإنما هو اللين الذي أسكنه الله فيه ، قال تعالى في آية آل عمران (١٥٩) : {قَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ}.

وقد جاءه - صلى الله عليه وسلم - يوماً رجل ومعه ابنه فلاحظ - صلى الله عليه وسلم - حبه له ؛ فسأله : أتحبه؟ فقال الرجل : أحبك الله كما أحبه يا رسول الله ، ولم يعلق - صلى الله عليه وسلم - على تلك الجملة التي يكفي التعليق عليها أن يكون رسالة دكتوراه أو كتاباً كبيراً ، حيث إن حب

الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ليس كحب أحد أحدًا ، ولو كان حب والدٍ ولدا ، من حيث معناه الذي هو مختلف عن الحب المعروف بين الناس ، فهو ليس حب الميل القلبي والوجداني ، ومن حيث مقتضاه ، فهو مصطفىاه لتبليغ رسالته عزوجل إلى خلقه ، ومن حيث الدلائل والأمارات ، والهيات والنفحات ، أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به إلى سدره المنتهى . عندها جنة المأوى ، واحتفل به النبيون والملائكة في الأرض والسماء ؛ فكانت الأرض والسماء له - صلى الله عليه وسلم - عرساً ، ونصرة الله عزوجل بالصبا (بفتح الصاد) وأهلك عاد بالدبور ، ونصره بالرعب ، وأحل له الغنائم ما أحلها لنبي قبله ، وعلمه الكتاب والحكمة وكان فضله عليه عظيماً ، إلى ما لا يتسع له المجال هنا في السرد الذي أشرت إلى أنه يصلح أن يكون رسالة جامعية ، أو عملاً مستقلاً كبيراً ، لكن الشاهد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عرف شعور الرجل ، وأن المراد من قوله "أحبك الله كما أحبه يا رسول الله" بيان شدة حبه ولده ، وليس محمولاً على الحقيقة التي تفيد أن حب الله لرسوله أقل من حب هذا الرجل ولده أبداً ، ونحن في هذا الزمان لا نستثمر مثل هذا كذلك ، بل نعلق ونعلق ونخرج القضية إلى قضية أخرى ، وربما تخاصمنا بسبب هذا الخروج ، لا بسبب الحق الذي نسعى إليه جميعاً ، والذي كان الإمام الشافعي يقول : اللهم سق الحق على لساني أو على لسان من يناظرني ، أي أن الرجل يسعى إلى الحق ، سواء أكان ذلك على لسانه أم على لسان مناظره ، فهو لا يسعى إلى الانتصار

ولعلنا في ضوء هذا القول نفيد بعداً جديداً من أبعاد الخطاب الرباني ، وهو بُعد السعة عند الضيق ، والأمل الكبير في سياق ما يمكن أن يكون ناساً بالنسبة إلى الأسباب ، بخلاف ما سبق بيانه من نحو قوله تعالى "بل لبثت مائة عام" ونحوه ، فإن سياق القول يختلف ، فلم يكتف هنا بقوله تعالى "كذلك" بفتح الكاف مع زكريا ، و"كذلك" بكسرها مع مريم وإنما جاء مع كذلك بيان قدرته تعالى ، وأنه برغم ظاهر ما هو معروف من انتفاء الأسباب "هو على هين" وتذكير زكريا ببده خلقه ، وبيان العلة من خلق عيسى عليه السلام {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا} .

وتأمل ذلك في هذا السياق من خلال القرآن الكريم كله ، حيث يقول الله - تعالى - : {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} . قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ { الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ .

تأمل وأنت تتعرف على الله - تعالى - كلمة "هذه" التي أصلها في اللغة "ذى" أو "ذهى" بالإشباع والاختلاس وللمشار إليه المؤنث عشرة أسماء ، أى المفردة المؤنثة ، أى أن الناس إذا كانوا فى كربة من كربات الدنيا ، كأن يكونوا فى البحر ، وجاءتهم ريح عاصف ، وجاءهم الموت من كل مكان دعوا الله مخلصين له الدين ، وقالوا : لئن أنجانا من هذه ، لم يفكروا إلا فى "هذه" لأنها القاضية ، أو المقصود أنها القاضية ، وهذا شأن الناس ، بناء على الضعف المعهود فيهم وعنهم فيه أنهم يرون أن هذه الكربة أم الكرب ، وأنهم لا يريدون إلا النجاة منها وأية كربة بعدها أمرها

عليه بأى وجه ، ومن هذا الوجه اصطيد الأخطاء والتعليق الفارغ ، والغلبة بالصوت ، كما روى عن الأصمعى عالم اللغة المشهور أنه انتهز فرصة لكنة كانت فى لسان سيبويه وأنه كلما انفعل ازدادت ، فاستفزه الأصمعى حتى زادت فغلبه الأصمعى فيما يرى الناس ، وقد أعرب الرجل عن ذلك مستغفراً ربه عما كان ، وكان ذلك فى مرض موته ، ومن دعائيه أنه قال : لولا أننى أعلم أن هذا مرض موتى لما حدثتكم عنه قال كذلك الله يفعل ما يشاء .

وحين قال زكريا - عليه السلام - إذ جاءته البشرى {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} مريم : ٨ .

فماذا قال الله له ؟

{قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} مريم : ٩ .

قال كذلك : أى كذلك كما قلت ، بلغت من الكبر عتياً وكانت امرأتك عاقراً لكنى قادر ، وهو على هين ، وانظر فى نفسك لقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ، فأبصر ، وكذلك قال تعالى لمريم - عليها السلام - حين قالت : {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} مريم : ٢٠ ، فماذا قال الله ؟ {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا} .

سهل، ألا ترى أن صاحب الحاجة يود قضاءها بأي شكل، فهو صريع حاجته وهو يظن أنه لن يكون صريع حاجة بعدها أبداً، فلتقض له هذه الحاجة فالذى سافر ولده إلى العراق مثلاً ولم يعد يقول يارب ليس لى طلب ولا رجاء إلا أن يعود ولدى، فقط، فقط يارب، وقد ينذر من أجل ذلك نذراً كبيراً، وغير ذلك وقد يعود ولده، وقد يقول يوم عودته: الآن لا أريد شيئاً من الدنيا الآن تحقق لى كل شئ.

وبعد مدة من عودة ولده يقع فى كربة أخرى قد تتعلق بولده العائد نفسه، وقد تتعلق بمعضلة أصابته فى بدنه أو فى زوجه أو فى ماله، أو فى شئ ما، فإذا به يقول الكلام نفسه، وكأنه ما وقع فى كربة قبلها، وكأنه لن يقع فى كربة بعدها.

كان الجواب المنتظر أن يقول الله - عز وجل - : "قل الله ينجيكم منها" وتنتهى المسألة، ولكن ما هكذا قال الله - تعالى - وإنما قال عز من قائل: "قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب" فانظر وأنت تتعرف على الله تعالى الذى تعبده إلى سعة رحمته وفضله، ولتستدع من داخلك ما ليس عنك ببعيد من أقوال الناس، حين قلت ذات يوم لقريب منك:

- إننى فى حاجة شديدة إلى كذا

- ومن يقضى لك هذه الحاجة ... ما تقول فيه، أو ما عسى أن تفعل

من أجله؟

- أفتدنيه بروحى ... معروف لا أنساه له، أو تزال قادراً على قضائها.

- سوف أرى ... هو يعنى! .. أصل يعنى ... فى الحقيقة وفى الواقع ... قل يارب.

- بجد؟ هل ممكن؟ أرجوك

- سوف أحاول، ولعلك تذكر

- يدك أقبل، رأسك أمطر بالقبلات، يرحم الله والديك.

ما وعدك الوعد الصراح، وما قال لك كما قال لك ربك.

- أقضيها لك، وأقضى لك كل حاجة بعدها، إن ربك وحده هو الذى قال لك ولى، ولكل عبد من عباده "قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب".

وهذه ليست مقارنة بين الله ربنا، وبين عباده بحال وإنما الشكل شكل مقارنة، لكن الحقيقة هى التعرف على الله - عز وجل - الذى ليس كمثله شئ فى ذاته وصفائه، وأقواله وأفعاله، وجوده وكرمه، وصبره، ومنهجه، وسعته.

وفى هذا السياق يقول الله تعالى فى آية الأنعام (٥٩): {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} ما قال الله "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو" فقط، وإنما قال: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

وهكذا نجد أسلوب القرآن الكريم فى سياق النعم يشرح الصدور ،
ويضى السبل، ويكشف الغم ، ويعد بالحق ، ويفصل المسائل ، وذلك
ليزداد المؤمنون إيماناً ، كما قال الله - عز وجل - فى آية المدثر (٣١) :
{لَيَسْتَفِيقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} .

ولك أن تقرأ فى هذه السورة (المدثر) قول الله - تعالى - : {ثَرْنِي
وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ
تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} المدثر الآيات :
(١١-١٦) .

فتعرف على الله تعالى فى ضوء هذه الآيات ، ولنقف عند كثرة نعمه
سبحانه وتعالى - على عبده ، وأن الله عز وجل الذى خلقه وحيداً ، كيف
أعطاه المال الممدود، والبنين الشهود ، الذين ليسوا فى حاجة إلى سفر
طويل بعيد من أجل المال، فهم فى غنى بين يديه ، إذا أشار إليهم بإشارة
تسارعوا فى تلبيةه ، وبأدروا بقضائها له ، ومعنى قوله تعالى "مهَّدت له
تمهيدا" أى وسعت له توسعة ، ومع ذلك يطمع فى المزيد ، فطالب المال
كطالب العلم ، كلاهما لا يشبع ، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
- وما قال الله : كلا ، أى : لا ، بحجة أن عنده ما يكفيه وزيادة ، قال الله له
ولا لغيره ذلك ، وإنما قال : لا ، لن أزيده لأنه كان لآياتنا عنيداً ، ولو لم
يكن لآيات الله عنيداً وسأل الله الزيادة لزاده الله ؛ لأن الله - تعالى - حين
قال فى آية النساء (٣٢) : {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ}

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ
فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} لم يوجه خطابه الكريم هذا للفقراء
دون الأغنياء ، وإنما قال لجميع عباده "واسألوا الله من فضله" وفضل الله
- تعالى - بلا حدود ونحن نؤمن إيماناً بأن الله - عز وجل - لو أعطى كل
إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً .

وقد ذكر المفسرون فى تفسير سورة الكهف ، فى قصة كليم الله موسى
- عليه السلام - والرجل الصالح أنهما قبيل الفراق وقفا ، فقال العبد
الصالح لموسى - عليه السلام - انظر إلى هذا العصفور ، وقد رأيا
عصفوراً هبط على البحر ، فشرب منه ، فقال : يا موسى ، ماذا أخذ هذا
العصفور من ماء البحر؟ فقال لا شئ ، فقال : إن ما عندى وعندك من العلم
لا يعدل من علم الله تعالى إلا بمقدار ما أخذ هذا العصفور من ماء البحر .

وصدق الله العظيم إذ يقول فى آية الإسراء (٨٥) : { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ
الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } .

وفى سياق النعم يخاطب الله - عز وجل - رسوله صلى الله عليه وسلم
- فيقول : {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلْآخِرَةُ
خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى .
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} .

وفى هذا السياق يقول عز من قائل : { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } .

وفيه يقول ربنا - عزوجل - : {إِيْلَافٍ قَرِيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رَحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ} .

وكذلك قول الله - تعالى - فى سورة البلد الآيات (٨-١٠) : {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} .

وكذلك قوله - تعالى - فى سورة عبس الآيات (١٧-٣٢) :

{قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُّطْقَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ . كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ . فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبْنَا وَقْضِيًّا . وَزَيَّنَّاهَا وَمَخْلَأَ . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} .

فانظر إلى هذا التفضيل فى سياق التعرف على الله تعالى وقف معى عند الحقائق الآتية :

١- أن الإطناب فى أساليب القرآن بارز فى سياق النعم الأمر الذى يقتضى الشكر والعرفان .

٢- وأن الله تعالى لم يكلف عباده بشئ إلا بعد أن ينعم عليهم فما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم - : {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} إلا بعد أن قال له مقسماً - والله يقسم بما يشاء - : {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلِأَخِرَةٍ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} ، وكذلك ما قال له {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} إلا بعد أن قال له {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} .

وكذلك ما قال لأهل سبأ الذين أنعم عليهم بجنتين عن يمين وشمال "اشكروا" إلا بعد أن قال لهم "كلوا من رزق ربكم" {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} سبأ : ١٥ .

وقال تعالى فى السورة نفسها الآيات (١٠-١٣) : {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ . أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَسْلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزْغِ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا لُذُقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} .

فقد رأينا أنه - عزوجل - ما قال لآل داود : اعملوا آل داود شكراً إلا بعد أن ذكر ما من به عليهم .

وذلك له بلا شك ثمرة عظيمة في حياتنا وفي مجال التربية بالذات ، حيث إننا إذا استثمرنا ذلك وهو في عموم الكتاب الكريم نجحنا في حياتنا بلا شك ، حيث إننا على مبعده من هذا النهج العظيم ، ألا ترانا نريد أن نقطف ثمرًا بلا زرع ونجنى العنب من الشوك ، ألا ترى أن الرجل يريد من زوجته طاعة وهو لها مسيء ، والرجل يريد أن يقف صاحبه إلى جنبه دون أن تكون له عليه يد سابقة بالخيرات ونحن نريد علماء مخترعين عباقرة دون أن نمدّهم بميزانية - وليل نهار نتحدث عن ميزانية أمريكا وإسرائيل المخصصة للعلم والبحوث العلمية ، يعنى أننا نعرف الدواء ، وهو بلا شك فى أيدينا ، ولكننا لا نود علاجاً ، نريد طفلاً عبقرياً لذاته وبذاته ، ولا حق لنا على تربيته ، ولا نحسن تعليمه ، والمدرس يسأل فى المجهول فإذا سكت تلاميذه ، قال لهم : هذه ذقنى إن نفعتم ، فهلا قال لهم : أين ثمرة علمى التى غرستها فيكم! إن كان عنده أولاً علم ، وكان بالفعل قد غرسه فيهم؟

ترى هل يقول لهم مثل هذه العبارة الفاسقة المدمرة إلا من أجل أن يشعرهم بالجهل حتى يكونوا له مجموعات للدرس الخصوصى ، ونحن نضربه بيد من حديد إن أعطى تلاميذه درساً خاصاً فى الوقت الذى ندفع له راتباً لا يكفيه مدة أسبوع ، فهل هذا من العقل أو من الدين ، إنما تضرب على يديه ورجليه إن أعطيته ما يكفيه لإقامة حياة كريمة ومن بعده رأيناه

يعطى دروساً خاصة ، فهو إذا شاذ ، ويقتضى العلاج والمحاسبة ، وهكذا فى سائر الأمور ، ومن أحسن التعرف على الله - عزوجل - فى هذا الفصل ، فتأسى بمنهجه وحكمه .

- أعطى زوجته قبل أن يسألها ما طبخت؟

- وأطاعت زوجها قبل أن تسأله براً وحناناً .

- وأخذ بكل سبب وطرق كل باب قبل أن يقول : يا حسرتى يا حظى

يا نصيبى.

- وأحسن تربية ولده قبل أن يقول : أين برك وأين إحسانك .

ماذا قال الله تعالى لنوح عليه السلام :

وفى قصة نوح - عليه السلام - نجد قول الله - تعالى - له : {وَأَوْحِيْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} هود : ٣٦ .

رحمة منه عزوجل برسوله صلى الله عليه وسلم - وكذلك قال له {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ} هود : ٣٧ .

وقال الله له : {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} هود : ٤٠ .

وقال الله تعالى له : { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } .

ونلاحظ في هذه الأقوال الإلهية أن الله - تعالى - أوحى إلى عبده أى قال له : لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس .

ويستفاد من هذا درس عظيم هو أنه تعالى متى قال فلا بؤس بعد قوله، وقد قال { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } هود : ٦ ، فأى بؤس بقى بعد هذا ، وهكذا قس عليها كل حكم ، فمن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

وقال الله لنوح عليه السلام : اصنع الفلك ، فما قال يارب كيف أصنعها ولا ماء، كما قال الذين سخرها منه .

وقد وصل هذا الدرس إلى صحابة رسولنا صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنهم فالحباب بن المنذر يقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر : أهدنا منزل أنزلك الله إياه ، أم أنها الحرب ؟ فلما قال له - صلى الله عليه وسلم - إنها الحرب رأى رأيا غير الذى رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ أوقفهم فى مكان رأى الحباب أن غيره أولى منه فأخذ - صلى الله عليه وسلم - برأيه .

ولو قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نعم إنه منزل أنزلنى الله إياه لما قال عندى رأى ، وإن بدا له من خلال خبرته وهو الخبير المحنك رأى ، لماذا؟

لأن الأمر إذا صدر ممن بيده الأمر ففيه الخير كله وإن لم يبد للناس أول الأمر، تماما كما قال الله لنوح "اصنع الفلك" ؛ فصنع الفلك ، وجاء الطوفان ، وقال له : اركب فيها وأهلك ومن آمن معك ، واحمل فيها من كل زوجين اثنين لتعمر الأرض بالأزواج .

وحين هجم الناس على المدينة من كل صوب وكاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوافق بعض الأحزاب على أن يعطيهم ثلث تمر المدينة ، فلما استشار - صلى الله عليه وسلم - قال السعدان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضى الله عنهما أهذا وحى من الله أم أمر تحبه؟ فقال : لا ، فقالا - رضى الله عنهما - لن يذوا منها ثمرة ، فقد كنا فى الجاهلية لن نعطيهم ثمرها إلا بيعا أو كرى ، أى بيعا وشراء ، أو ضيافة ، أما وقد شرفنا الله بالإسلام فلن نعطيهم من ثمرها ثمرة ، وعلينا أن نجاهدهم. فلو قال النبي - صلى الله عليه وسلم - إنه الوحي لقالوا سمعًا وطاعة ، ولو قال هو شئ أحبه لقالوا وقد قالوا بالفعل : أنفذناه لك محبة فيه - صلى الله عليه وسلم - .

وحين خيرت بريدة ، جارية عائشة رضى الله عنهما بعد أن اعتقت بين البقاء على ذمة زوجها مغيث ، وبين تركه وهذا من أحكام الشريعة الغراء إذا كانت الأمة تحت عبد فأعتقت كان لها الخيار ، إن شاءت بقيت على ذمته ، وإن شاءت تركته وكان "مغيث" يحبها ، وهى لا تحبه ، فكان يطوف وراءها فى شوارع المدينة المنورة ؛ فرق له - صلى الله عليه وسلم - وحكمها فى شأنه ؛ فقالت :

أمرٌ أم شفاعة يا رسول الله ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : بل شفاعة ؛ فقالت : لا حاجة لى فيه ؛ فتركها صلى الله عليه وسلم .

ولو كان أمراً لامتنلت رضى الله عنها ، لأن الأمر خاصة إذا كان للوجوب وهو الأصل فيه يقتضى الامتنال ، وقد قال الله عزوجل فى آية الأحزاب (٣٦) : {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} .

وليس ذلك على سبيل القهر والإذلال ، وإنما هو على سبيل إسعاد مَنْ كان منه الامتنال وقد قال الله عزوجل فى آية الأنفال (٢٤) : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} .

ماذا قال الله لموسى - عليه السلام :

وفى قصة موسى - عليه السلام - وهى متكررة فى سور كثيرة جملة من الأقوال الإلهية منها ما سبق من قوله تعالى : {اضْرِبْ بَعْصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا} ومنها قوله تعالى حين قال : {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} الشعراء : ٦٢ ، قال الله عزوجل : {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ . وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} الشعراء : (٦٣-٦٧) .

ومن هذه الأقوال الجليلة المهمة فى سياق تعرفنا على الله عزوجل قوله تعالى فى آية طه (٤٦) : {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} وذلك حين قال موسى - عليه السلام - وأخوه هارون عليه السلام : {قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى} طه : ٤٥ .

وذلك مهم كما أشرت لأن مفاد قول الله - تعالى - {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا} أن مَنْ كان الله تعالى معه فلا خوف عليه ، وفى سياق المعية أقول : إن معية الله ، عزوجل نوعان ، الأول : معية العلم والإحاطة ، وهى لكل إنسان مسلماً كان أو كافراً ؛ لأن الله - عزوجل - لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، قال تعالى فى آية المجادلة (٧) : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

والثانى : معية النصر والتأييد ، وهى لعباده المخلصين ومنها قول الله - تعالى فى آية التوبة (٤٠) : {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

وفى آيات الشعراء (٦١-٦٨) : {فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ

والقائل في آية البقرة (٢٤٩) : {كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
يَاۤدُنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ مَعَ الصّٰبِرِينَ} والقائل في آية العنكبوت (٦٩) : {وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} .

إن الذين يتعرفون على الله ، وقوته قوة القوى يؤمنون بأن الله -
تعالى - ناصرهم متى كانوا أصحاب حق ، ومتى كانوا مع الحق أصحاب
يقين بالله - عز وجل .

ويطيب لى ولكل مسلم أن أذكر في هذا السياق أن المسلمين حين
أصابهم الفرح يوم أحد بسبب أن الرماة لم يلزموا أماكنهم كما أمرهم رسول
الله صلى الله عليه وسلم - كان ذلك يوم السبت ، وطلب منهم صلى الله عليه
وسلم - أن يخرجوا يوم الأحد ، اليوم التالي لأحد ، واشترط ألا يخرج معه
اليوم إلا من خرج معه بالأمس وكان في الناس جراحات ، فتأخر بعضهم
قليلاً ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : لو لم يخرج معي أحد منكم لخرجت
إليهم وحدي ذكر ذلك أصحاب السير والتاريخ ، وخرج معه صلى الله عليه
وسلم - جميع من خرج بالأمس ، وبلغهم أن قریش جمعوا لهم من الجنود
ما لا طاقة لهم به ، فماذا قالوا؟ وماذا قال الله - عز وجل - : {الَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللّٰهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّٰهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا
رِضْوَانَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا
تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِيَّاهُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ

ومنها أن المتقى يؤتى الزكاة ، ويؤمن بآيات الله ، وهذا الذي يعرفه العلماء
بالمخصوص بالذكر ، أى خصت الزكاة والإيمان بآيات الله - عز وجل -
والمخصوص بالذكر إنما خص بالذكر لأهميته ، وعلو شأنه ، وسمو منزلته
، والتقوى تشمل هذا المخصوص بالذكر وتشمل غيره ، لكن المخصوص
بالذكر مهم كما ذكرت .

ومن تلك الأقوال المباركة قول الله عز وجل لموسى - عليه السلام -
في آية طه (٦٨) : {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} وذلك حين أوجس في
نفسه خيفة موسى ، نعم هو الأعلى ؛ لأنه ليس بساحر ، ولا كاهن ، ولا
مدع للنبوّة بغير برهان ، طبيعي أن يخاف في نفسه ؛ لأنه بشر ، رأى
عصى السحرة وحبالهم كأنها تسعى ، وهى فى الحقيقة لا تسعى وإنما هذا
كيد الساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى .

وبناء عليه ، يجب ألا يخاف صاحب الحجة أمام جيوش النساء ،
وشهادة الزور ، مأساة تفشت فينا معشر المسلمين ، ترى الرجل صاحب
حق ، ويتقاعس أمام ما يراه من بطش المعتدين ، وعدوان الظالمين ، يقول :
"وأنا أروح منين فى دول يا عم" .

وما هكذا يقول من تعرف على الله - عز وجل - الذى يقول فى آية
الحج (٤٠) : {وَلَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} .

إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران (١٧٣-١٧٦).

فتصور هذه القضية - وهى جد مهمة - فى ضوء هذا البيان ، حيث خرج المؤمنون بجراحاتهم ، فقيض الله تعالى لهم من لم يكن وقتها مسلما وهو معبد الخزاعى الذى كان من خزاعة ، وكانت خزاعة عبية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مؤمنهم وكافرهم ، لا يخفون عنه شيئا ، ولا يظاهرون عليه أحداً ، وفاء بالعهد الذى كان بينه - صلى الله عليه وسلم - وبينهم .

وقام معبد الخزاعى بمهمة جليلة ، حيث أقهَمَ أبا سفيان وجنده أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جمع لهم الجموع وحشد لهم الحشود ، إلى درجته أنه أنشأ فى ذلك شعراً ، أوله :

كادت تهد من الأصوات راحلتى إذ سألت الأرض بالجرى والأبابل
تردى بأسد كرام لا تنابلة عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظلت عدوا أظن الأرض مائلة لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكمو إذا تغطمطت البطحاء بالخيول
إن تريد لأهل البسل ضاحية لكل ذى إربة منهم ومعقول

قال ابن هشام فى السيرة مع الروض (١٧٤/٣) : فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه أى مضوا إلى مكة ، وكانوا قد عزموا على العودة إلى المدينة

للقضاء على المسلمين قبل أن يفيقوا من جراحات الأمس ، ذلك تصريح الله - عز وجل .

ثم تأمل قول الله - تعالى - فى تلك الآيات {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} وما أكثر الشياطين شياطين الإنس فى زماننا الذين يثيرون الرعب فى نفوس أهل الحق وأصحاب الحجة .

يقولون لهم : لا طاقة لكم بفلان وعلان ، إنه صاحب القاضى وصديق وزير الداخلية ، وأنتم مساكين ، بسطاء ، وعندكم عيال ، ألا تريدون أن تربوا أولادكم، إن الحرب غير متكافئة .

وقد سمعنا هذه العبارة من قادة وحكام وسياسيين الذين نفخوا فى الصهاينة ، وادعوا أن وراءهم الدولة العظمى ، وأنا لسنا على استعداد للحرب حتى فتوا فى عظام الناس ، وفى كل يوم وليلة نرى أبناء فلسطين أشلاء ممزقة على الطرقات ، وترى مزيداً من الاحتلال الأمريكى لبلاد المسلمين .

أليس الأولى أن يتفق هؤلاء القادة وأن تتوحد كلمتهم وصفوفهم ، وأن يتحدوا كما اتحد غيرنا ، وأن تكون لنا شوكة هى والله موجودة ، ولكن متشعبة متفرقة ، إن الأمة لو اجتمعت على هدف فلن يقاومها جيوش الأرض ، لأنها أخلصت النية لله ، والله معها والله ينصر رسله وأوليائه إذا كانوا حقاً جنداً لله قال الله - تعالى - فى آية الصافات (١٧٣) : {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} .

لكن شهوة البغاء على الكراسى الكبيرة وغيرها من زينة الفانية أدى إلى هذا الخنوع ، والاستمرار على الذل الذى لا يشعر به إلا من فقه دينه وكذلك المال على مستوى الأفراد الذين تغتصب أموالهم وأراضيهم وعقاراتهم وهم أصحاب حق يقال للفرد ما يقال للأمة : من أنت؟ وما عسى أن تفعل ، وأنت مسكين ، ربّ أولادك ، وعوضك الله ، ومن هؤلاء من يقول شائع القول فى مثل هذه المناسبات غير الطيبة "حسبى الله ونعم الوكيل" .

ومن قال هذه العبارة مستسلما للظلم فما عرف الله - عز وجل ، فقد مرت بك الآيات ، وعرفت أن الذين قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل لم يقولوها وهم مستسلمون نائمون تاركون حقوقهم ، وإنما قالوها وهم متوكلون على الله ماضون فى الطريق وراء أعدائهم برغم ما فيهم من قرح .

كما رأينا - ومر بنا - ما كان من السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عباد - رضى الله عنهما - حين أصرا على الجهاد وقد زلزل المسلمون ، وبلغت القلوب الحناجر ، إذ جاءهم الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم ، فراغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وأبيا أن يأخذ الأحزاب ثلث تمر المدينة وينصرفوا ، ونصرهم الله، عز وجل {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْوُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا } الأحزاب (٢٥-٢٧) .

إن الذى يتعرف على الله عز وجل - ويعلم أنه على كل شئ قدير ، يجب أن يكون على يقين من ربه ، وعلى بصيرة منه ، وأن يعلم أن الله - تعالى - ناصره ، ومؤيده ، ومثبت أقدامه ، فلا غالب له .

والعلماء يعرفون (لا) هذه بلا النافية للجنس أى لا غالب له من جن وإنس وشيطان وعفريت ، وقوة كائنة ما كانت من الأرض ، فلمن هذا الخطاب ، وما تقتضاه ، إلا أن يسعى صاحب الحق فى طلب حقه ، والله حسبه ، ونعم الوكيل .

فتحت هذه المعارف الشيطانية ، والموروثات الغبية ضاعت حقوق ، وانتهبت مصالح ، ترى الرجل يبصر الفساد ، ولا يقاوم المفسدين ، بل لا يبلغ عنهم بحجة أنه مسكين ، ولا طاقة له بذلك ، فالمفسدون أقوياء ، وأصحاب نفوذ ، ويتحكمون فى الناس ، وهذا فى ذاته فساد ، ورؤية مظلمة ، لأننا لا نواجه المفسدين وحدنا ، وإنما معنا الله ربنا ، ومن كان الله معه فلا غالب له ، كائنا ما كان ، وكائنا من كان ، يقول هذه العبارة الشائعة "عندى عيال عايز أربيهم" وكأنه إله يرزقهم ، وإن جرى له مكروه فسوف يضيعون ، وما هكذا يكون سلوك مَنْ تعرف على الله عز وجل - قوة القوى .

المهم أن يكون محاربته للفساد والمفسدين خالصة لوجه الله بمعنى أن هناك مَنْ يحارب الفساد والمفسدين من أجل أنه لم ينل منهم خيرا ، ولو نال منهم خيرا لما حاربهم ولما قاومهم ، أو أبلغ عنهم ، ومثل هذا ليس له من الله نصيب جاء فى أثر قديم أن رجلا تمثل له الشيطان ، أراد أن يقلع شجرة كان الناس يعبدونها من دون الله بسبب وسوسة الشيطان ، فقال له الشيطان:

- مادمت تعبد الله ، فكن في حالك ، واترك الناس يعبدونها فقال :

- لا ، هذا ضلال مبين ، ولا بد أن أقتلها .

فقال الشيطان :

- وإذا منعك من اقتلاعها!

قال له :

- صار عتك .

فصارعه الشيطان ، فغلبه المؤمن .

وجاء في اليوم التالي ، وأعطاه الشيطان مبلغاً من المال فقبله "رشوة"، واتفقا على أن يدفع له هذا المبلغ يومياً ، فقطع الشيطان عهده ، وقال له : لا مال لك عندي ولن تقطع الشجرة ، فقال : أقتلها ، قال : وإن معتك قال : أصار عك ، فصارعه ، فغلبه الشيطان ، فقال له كيف وقد غلبتك قبل؟ قال الشيطان : غلبتني حين كنت تصارعني لوجه الله ، وغلبتك حين صار عتني لوجه المال ، وفي هذه القصة درس عظيم لكل من يخوفه الشيطان ، فعليه ألا يخاف إذا كان جهاده في الله عزوجل لا أن يكون مجاهداً وفق هواه ومنفعته التي ليست بحق له .

وإشاعة التخويف فاشية في زماننا إلى حد كبير خصوصاً هذه الأيام التي تفلتت فيها قوى البلطجة نظراً إلى الظروف التي تمر بها البلاد إثر ثورة ٢٠١١/١/٢٥ ، حيث فر كثير منهم من السجون وهددوا الناس ، وسرقوا ، ونهبوا ، وهم مسلمون ، فترى جاذبة هنا ، وشائعة في كل مكان ،

فمن سمع شيئاً من الحق أضاف إليه أشياء من الباطل ، وليس هذا منهج المسلمين ، ولا يرضى هذا رب العالمين ، وعلينا جميعاً أن نتصدى لمثل هؤلاء الذين يعبثون في الأرض فساداً ، وقد سبق الكلام في هذا .

ومن هذه الأقوال المباركة قول الله تعالى لموسى - عليه السلام - في آية القصص (٣٥) : { قَالَ سَتَشِدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } .

انظر في سياق التعرف على الله - عزوجل - إلى قيمة الأخ في حياة أخيه ، وانظر كيف أهدرنا تلك القيمة فبدل أن يكون الأخ شداً للعضد صار الأخ مفتاً للعضد وتفرق الإخوة ، والأخ من رحمة الله تعالى بأخيه ، ألا تقرأ قول الله تعالى في سورة مريم الآيات (٥١-٥٣) : { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا } .

فكيف استحالت القوة ضعفاً ، والرحمة عذاباً ، لاشك أنه بسبب التعرف على غير الله ، الذين أشاعوا في الناس بغض الأخ وأن هجره خير من وصله ، ومجافاته أرحم من مودته ، ومقتضى التعرف على الله عزوجل أن نصدق الله لا أحداً سواه ، وهو الذي قال سنشد عضدك بأخيك ، وقال : ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً .

وقد توسع الإسلام في الأخوة ، وذلك في ضوء التعرف على الله عزوجل - فمع الأخوة في النسب { لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ

لِّلْسَائِلِينَ} يوسف : ٧ . أخوة فى الدين {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} الحجرات : ١٠ ، وفى الصحيح قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "المسلم أخو المسلم" وأخوة فى الإنسانية والوطن {إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} الشعراء : ١٠٦ .

وباتساع معنى الأخوة يتسع مقتضاها ، وذلك مع مراعاة الأولويات ، فالأخ فى النسب أولى برعاية أخيه من الأخ فى الدين والأخ فى الدين أولى برعاية أخيه من الأخ فى الإنسانية ، ومعنى ذلك أنه لن يعدم المرء أخا له بحال من الأحوال ، أى لن يعدم مقتضى الإخوة {إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ} يوسف : ٦٩ ، ومن هذه الأقوال المباركة قول الله - تعالى - لموسى وأخيه - عليهما السلام - : { قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } يونس : ٨٩ .

إن التعرف على الله - عزوجل - فى ضوء هذه الآية مهم جدا .

حيث إن الناس يعرفون الكثير من الكلام قبل الدعاء ، لكن قلما تجد متحدثا أو كاتباً يتناول ما بعد الدعاء ، فقد بينت الآية الكريمة أن الاستقامة واتباع سبيل المؤمنين واجب على مَنْ أجاب الله دعاءه ، فمن سأل الله أن يقطع دابر ظالم فقطع الله دابره عليه أن يستقيم بعده حتى لا يكون ظالما مثله ، انظر إلى هذه الآية (١٢٩) من سورة الأعراف وهى على لسان موسى - عليه السلام - أيضا : { قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } .

* وكم من غنى سأل الله مالا ، فاتاه الله المال ، فلم يستقم حيث لم يتق فيه ربه ، ولم يصل به رحمه ، بل اتبع سبيل الذين لا يعلمون ، فعربد ، وأفسد ، وطغى ، وتجبر .

* وكم من فتاة سألت الله زوجا صالحا ، فلما آتاها زوجا صالحا أفسدت حياتها وحياتها ولم تستقم على منهج الدين بشكر رب العالمين ، وإسعاد زوجها .

* وكم من رجل سأل الله زوجة طيبة ، فلما آتاها إياها أفسد عليها حياتها ، وأساء إليها .

* وكم طالب صحة وهو مريض ، فلما شفاه الله لم يستقم بها على طاعة الله ، وإنما مشى بها فى مسالك الشياطين وعصى بها رب العالمين .

* وكم من قائل : ليتنى كنت مكان فلان ، فأفعل كذا وكذا ، فلما مكنه الله من مكانه وجدناه أسوأ منه ، أعرف أستاذاً زميلاً فى الجامعة ، عرف عنه أنه يعذب تلاميذه الذين يشرف عليهم فى رسائلهم الجامعية "الماجستير والدكتوراه" وكذا الذين يناقشهم ، فلما ناشدته بالله أن يرحمهم قال لى : هل نسيت أيام كنا مثلهم ماذا فعل فىنا المشرفون ؛ فقلت : تذكر قول الله - تعالى - فى آية النساء (٩٤) : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

ومادام الله قد منّ عليك إذ كنت في مكان هذا الطالب وحصلت على الدرجة العلمية ، وكتبت ما كتبت من البحوث ورقيت إلى درجة أستاذ ، وأشرفت عليه فلا تعذبه ، بعلة أنك عذبت قبله ، بل ارحمه لأن الله رحيمك ، واحتسب عند الله ثوابه كما احتسبت عند الله عذابك من قبله ، إن كثيرا من الناس ينسون ما كانوا عليه ، وما من الله - تعالى - به عليهم وما سألهم الله تعالى نسيان ذلك ، وإنما سألهم أن يذكروه لا ليعكروا صفوهم ، أو يجلبوا النكد على أوديتهم ، وإنما ليروا جمال ما هم عليه الآن بالنسبة إلى ما كانوا عليه فيزدادوا لله حمداً وشكراً .

قال الله - عز وجل - في آية الأنفال (٢٦) : {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} .

وقال تعالى في آية الأعراف (٦٩) : { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .

فإنه يحب أن يرى عبده ذاكراً نعمه ، قال الله تعالى في سورة المائدة الآيتين (١١٠-١١١) : {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَمْرِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَمْرِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأَمْرِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَمْرِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جَنَّهُم بِالْبَيِّنَاتِ

فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } .

وقال الله عز وجل لخاتم أنبيائه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} الضحى : ١١ .

ماذا قال الله - تعالى - لأم موسى؟

وقال الله تعالى لأم موسى : أرضعيه ؛ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين متى قال فقد صدق ، حتى ولو كان ظاهر القول يوحي بغير ما يحتمله العقل ، فالله خلق العقل ، والقلب ، وخلق كل شيء ، كيف تلقى امرأة ولدها في اليم؟ إذا خافت عليه؟

نعم تضعه في حناياها ، وبين أحشائها ، وفي عينيها تضعه في حجرة بعيدة عن الأعين ، هكذا يعرف الناس لكن رب الناس يوحى إليها أن تضعه في موضع الهلاك ؛ لأنه حافظه ، وهذا وعده ، ووعدته الحق : {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} القصص : ٧ .

إن الله - عز وجل - حكمة يعلمها ، وأموراً يصرفها ، وعجائب يدعونا إلى تأملها ، فالقضية ليست مسألة حفظ موسى فقط ، وإنما هو الحفظ في سياق اختراق العادات ، والقدرة على أن يكون موضع النزع الذي لا يشك فيه أحد هو موضع الأمان ، هل يتصور ذلك مؤمن وهو

يتعرف على بديع صنع الله - عز وجل - وعظيم آياته ، فهو يرى هنا بيت فرعون في انتظار موسى الذي سيلقيه اليم بالساحل ليدخله لا لكي يقتلوه ، وإنما ليكون قرّة عين لهم ، ويربوه ، وعلى يديه - عليه السلام - نهايتهم ، لأنهم كفروا وكذبوا بآيات الله واستكبروا في الأرض بغير الحق .

هل يتصور مؤمن هذا وهو يعمل مخلصاً فإذا به يربح في موضع يجمع فيه الناس أنه موضع خسارة ، وذلك بإذن الله - عز وجل - وأن طفلاً ينشأ في بيئة جاهلة متخلفة مقيدة يمكن أن يكون عالماً كبيراً برغم أنه لا شئ حوله يشجع على ذلك .

ومازلت أذكر قصة تلك الفتاة الفلاحة البائسة ابنة الفقراء حين تزوجها رجل من أهل المدينة ؛ فقال الناس لن تكمل سنة وتعود إلى قريتها مطلقة ، وتندر بعضهم قائلاً : وكيف تقولون ذلك ، لن تمر سنة حتى يضمربها النار ؛ إنها لا تختلف كثيراً عن بقرة أبيها ، ما عسى أن يفعل بها ذلك الرجل وهي لم تنشأ بين أهله ، ولا في مدينته ، وليس لها خبرة بمثل حياته ، وليس عنده في شقته بالمدينة جاموسة حتى تحلبها له ، ولم يكفوا عن الاستهزاء ، والسخرية ، وبالفعل عادت بعد سنة ، ولكن عادت بصحبته ، وعلى صدرها طفل كالقمر ، وإلى جوارها زوجها الذي جاء واصلاً شاكراً ، وقد قالت أمها لها يوم الزفاف ولزوجها : لا نزول لكما قبل سنة ، حبستها في بيت زوجها فعشقتة ، وتعلمت بسرعة كل شئ ، وأبعدتها عن عيون الحاسدين الحاقدين ، وكانت وأهلها تزورها بين الحين والحين محملة بالخيرات ، عزمتم على النجاح فوقها الله ، وكم من فتيات المدن

الجامعيات يفشلن بعد أسبوع من الزواج ، إن الذي يتعرف على الله - عز وجل - في هذا السياق يستفيد الدرس العظيم ، وهو أنه متى صحت نيته وتوكل على الله مولاه فإن الله موفقه وناصره وإن قلت أسباب توفيقه وعدته.

وماذا قال الله لعباده ؟

وفي أية غافر (٦٠) يقول الله - تعالى - { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } .

والعلماء يقولون إن الدعاء عبادة . ويستشهدون على ذلك بقوله الله - تعالى - في هذه الآية { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي } .

وإذا كان الدعاء عبادة فلكل عبادة شروط صحة ، و كيفية أداء ، وروح تسرى في دماء العابد ، تنفعه يقيناً لا شكاً وتضئ حياته وتحسن دنياه وتدخر لأخراه ، وشروط الدعاء أن يكون الداعي لله عبداً ، مخلصاً له الدين : { وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين } الأعراف : ٢٩ ، و أن يكون طيب المطعم قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص سعد ، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، وأن يكون للداعي رصيد من الخير عند ربه { فَاَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } الأنبياء : ٩٠ .

وهذا وغيره الذى أسميه دعامة الدعاء أو مايستند عليه الدعاء وسوف يخرج بإذن الله عملاً مستقلاً .

وأما الكيفية فهى التضرع و الخفية {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} الأعراف ٥٥

وفى سياق التعرف على الله تعالى - ذى الجلال أقول : ماقال أحد لأحد : أدعنى أستجب لك ، و إن قالها بعض الناس فهيهات أن تكون كما قالها الله تعالى ، فالذين يقولون مثال ذلك وهم صادقون قد تقف دون عونهم و إجابتهم العقيدات ، وقد يموتوا قبل أن يستجيبوا والله وحده الحر الذى لا يموت ، وقال وقوله الحق {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذْنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} الفرقان: ٥٨

وقد يعجز عن أداء ما وعد به كله أو بعضه ، والله عز وجل يعجزه شىء ، فى الأرض و لا فى السماء ، وقد يقول لك هذه العبارة المحفوظة : إذا أرت أن تطاع فأمر بما يستطاع ، وهكذا قال الله - تعالى - لأن الله عنده كل شىء ، وهو على كل شىء قدير .

وقد تسأل أحد الناس شيئاً فيعتذر ، لأنه ليس عنده ، وإنما عنده شىء آخر ، لكن أنظر إلى قوا الله - تعالى - {وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} الحجر: ٢١ إن سألت رجلاً ما شية وكان صاحب صناعة ضحكك و العكس إنه يريد أن تسأله شيئاً عنده ، أما الله - عز و جل - فسأله كل شىء ، فكل شىء عنده .

التعريف على الله

حدثنى صديق طيب حين نزلنا بأحد الفنادق الكبرى بجوار المسجد النبوى ، بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة و السلام بأن هذا الفندق فيه كل شىء ، وأخذ يردد هذه العبارة " كل شىء ، أى شىء و ، بسم الله ، تبارك الله " وكنا فى الطريق إلى هذا الفندق بعد صلاة الفجر فى المسجد المبارك فلما وصلنا سألت مدير الفندق حيث كان جالساً فى بهوه (اللوبى) عن رغيف تيميس ، هل لديكم ؟ فأبتسم الرجل وقال - أما هذا فليس عندنا ، فنظرت إلى صديقى ، وقلت : فيه كل شىء ، أليس كذلك ؟ لكن المدير كان رجلاً كريماً ، فأرسل أحد عماله و أشتري من أجلى رغيفين من التيميس من محاله المحاورة للفندق والشاهد أنه ليس فى أى مكان كل شىء ، وليس فى أى زمان كل شىء ، وليس عند أى نسان كل شىء وإنما عند الله - تعالى - كل شىء ، وصدق الله العظيم إذ يقول {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ النَّهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَانِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} إبراهيم : ٣١-٣٤ .

فأنظر كيف قال الله - تعالى - : { وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ } و كيف قال: " وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا " فمن ذا الذى لاتحصى نعمه إلا الله عز وجل ؟

ماذا قال الله للنحل :

حتى النحل قال الله لها {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } سورة النحل ٦٨ ، ٦٩ .

وأوحى أى قال ؛ فقد هدى الله تعالى-النحل إلى حركة المياه ، وبين لها مكان معيشتها ، ومواضع رزقها رحمة بها من أذى عباده ، ورحمة بعباده ممن لسعها ، وكل ميسر لما خلق له ، ولاشك أن الثمرات زرعتها الإنسان ، فهي تأكل من ثمراته ، و هو يشرب مما فى بطونها من عسل فيه شفاء للناس ، فما أعظم خلق الله ، وما أجمل نظامه البديع !

ماذا قال الله - تعالى - للسموات و الأرض

والله عز و جل يقول فى أية فصلت (١١) {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} كما قال الله للسموات و الأرض ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، رضيت السموات و الأرض و كذا الجبال أن يكون لهن إختيار ، {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} الأحزاب : ٧٢ .

فيا ليت الإنسان الذى حمل الأمانة وكان له إختيار كان كلسموات و الأرض طائعا لله عز و جل ، وأثر الهدى على الهوى ، و الأبصار على العمى ، و الحق على الباطل ، و الإيمان على الكفر

ماذا قال الله - تعالى للنار :

وفى الدنيا قال الله للنار {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} الأنبياء : ٦٩ .

ونبهنا الله - تعالى - إلى قول آخر سوف يقوله للنار يوم القيامة {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ} ق : ٣٠ .

وفى السورة نفسها الآية (٢٩) {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} .

وقانا الله سوء العذاب فى الدنيا و الآخرة ، ونجانا من عذاب النار التى نقول : هل من مزيد ؟ "لأن المفسدين كثيرون والظالمين كثيرون "

ومن يتأمل كتاب الله عز و جل يجد أن الله تعالى قال للملائكة وقال للأنبياء ، وقال لعباده ، وقال للسموات و الأرض ، وقال للنحل ، وقال للشيطان ، وقال للنار ، فقد قال الله لكل مخلوقاته ، وحتى الكافرين {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} .

ماذا قال الله - تعالى - لخاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

وقد قال الله - تعالى - لخاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - كل شيء ، وعلمه علم كل شيء ، وكان فضله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم عظيماً ، وتأمل هذه الآيات ، حيث قال الله - تعالى - في آية فصلت (٤٣) { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ } فتعرف على الله عز وجل - من خلال هذه الخلاصة التي أستترت على الدهر ، و أستقامت على قلوب النبيين والمرسلين و عباد الله الصالحين ، فالله ذو مغفرة لمن يستحقها وذو عقاب أليم لمن أراده ، فقد صدق النبي الكريم حيث قال " كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى " فسأل الناس كيف يأبى أمرؤ أن يدخل الجنة ؟ و أجاب صلى الله عليه وسلم بقوله : مَنْ أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى "

وفي آية الإسراء (٦٠) يقول الله - تعالى - لخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا }.

التعريف على الله

الفصل الثالث

ما يرضى ربنا من القول

وما لا يرضيه

ماذا أحب الله لنا أن نقول :

لاشك أن رغبنا في التعرف على الله عز و جل تقتضى أن نتعرف على ما يجب أن نقوله ، فماذا أمرنا الله أن نقول

١- إن الله عز و جل يحب أن يقول الصابرون عن نزول البلاء الذى هو شئ من الخوف والجوع و نقص من الأموال والأنفس و الثمرات " إنا لله و إنا إليه راجعون

قال تعالى : {وَلْتَبْلَوْنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } البقرة ١٥٥ - ١٥٧

وقولنا : "إنا لله و إنا إليه راجعون " يسمّى إسترجاعاً ، و معناه أن الله م أخذ ، والله ماعطى ، و نحن ومانملك شئ مما يملك الله عز و جل

وقد روى البخارى و مسلم أن المصباح أنطفأ ذات ليلة فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال "إنا لله و إنا إليه راجعون" فقالت عائشة - رضى الله عنها - إنه المصباح يارسول الله فقال عليه الصلاة و السلام : كل ماساء المسلم مصيبة، و معنى هذا أن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - كانت ترى أن إنطفاء المصباح لا يرقى إلى أن يسترجع عنده الإنسان ؛ فبين لها ولنا جميعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه وغيره مما ساء المسلم مصيبة ، و كل مصيبة يحسن عندها الإسترجاع .

ومن هنا ومما سوف يأتى ذكره فى هذا الفصل أقول : إن كثرة المصائب فى حياتنا سوف نجعل لساننا لا ينطق إلا بقولنا : "إنا لله و إنا إليه راجعون" فمتى ننال حظنا من سائر الأقوال التى يحبها الله عز و جل ، والتى منها (ماشاء الله لاقوة إلا بالله) عند مشاهدة النعم و الخيرات ، لابد أن ننال حظنا من ذلك .

وذلك لا يكون إلا إذا عالجنا المصائب ، والله معنا بلا شك فالرجل تؤذيه زوجته / فهل يظل عمره معها يقول "إنا لله و إنا إليه راجعون" ، أم عليه أن يعالجها و يعظها ، وهو يدعو الله أن يعينه على ذلك ، حتى تكون كما قال الله عز و جل {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} الفرقان : ٧٤ .

وكذا الزوجة التى يعاندها زوجها ، وينجل عليها ويسىء عشرتها ، وقد لا تكون سبباً فى ذلك ، فهل تظل عمرها قائلة كلما أذاها "إنا لله و إنا إليه راجعون" .

وهل يظل طالب العلم يقول فى كل مسألة لا يفهمها : إنا لله و إنا إليه راجعون أم يسأل شيخه ويبذل جهده من أجل أن يفهم فيحمد الله .

وهل يظل الضعيف ضعيفاً يقول "إنا لله و إنا إليه راجعون" أم يتقوى و يأخذ بأسباب القوة حتى يكون ذلك له خيراً فيحمد الله

وهل تظل الأمة مقهورة ذليلة متمهلة يهتف أفرادها "إنا لله و إنا إليه راجعون" أم عليها أن تقوى و تنهض حتى تقول ما يحب رب العالمين .

وترى هل يظل المريض عليلاً يقول "إنا لله و إنا إليه راجعون" أم عليه أن يأخذ بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم - حيث قال تداووا عباد الله " وبقية المدين دليل على وجوب التخلص من الأذى ، حيث قال : فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل معه الدواء فإذا مرض المرء قال "إنا لله و إنا إليه راجعون" وهو فى طريقه إلى التداوى حتى يبرأ ، ويحمد الله ، إذا ليس من المعقول أن يظل المرء عمره يقول "إنا لله و إنا إليه راجعون"

ولله در الصديق - رضى الله عنه - حيث قال و هو يعزى قوماً فى المدينة المنورة - على ساكنها الصلاة والسلام - لامصيبة مع الفراء " نعم لا مصيبة مع الفراء : الفتوية ومتى قوى الإنسان فقد خف عليه حمل المصيبة ، فهو سرعان ماتحول من الإسترجاع إلى حمد الله ، وهكذا أقول فى كل موضع من مواضع المصائب ، على المسلم أن يسعى ألى التخلص منها حتى يتسنى له أن يقول مايرضى الله - عز و جل ، ألا ترى قول سليمان - عليه السلام - حين رأى عرش الملكة مستقراً عنده قبل أن تأتية مسلمة {قال هذا من فضل ربى} النمل ٤٠

٢- ولا بد أن نقول {هذا من فضل ربى} النمل ٤٠ حين نرى نعم الله التى يكن العلم سبيلاً إليها و العمل .

ألا ترى ألى قول الله سبحانه فى الآية نفسها {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} .

فمن سره أن يقول قولاً يحبه الله - عز و جل - فليسع إلى مناخ هذا القول

٣- ومن تلك الأقوال ماجاء فى سورة النصر ، حيث قال الله - عز و جل {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} .

وآخر حديث ختم به البخارى - رحمه الله - جامع الصحيح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن (فى روايته) : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" .

وسياق هذا القول كما جاء فى سورة النصر أن يجىء نصر الله والفتح ، ولعلك تعرف أن نصر الله لمن ينصر دينه ويجاهد أعلائه . وهذه السورة كما يعرف العلماء و المفسرون كانت نعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى بعد حياة حافلة بالجهاد ، ضحى فيها الناس حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنفس والمال فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً فمن رغب فى تسبيح الله سعى إلى مناخ هذا التسبيح الذى قد يكون تفكراً فى خلق السماوات والأرض ، والوقوف عند آياته ومعجزاته ، ألا ترى إلى الآية (١) من سورة الإسراء حيث يقول الله - تعالى - : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} .

ولن يتسنى للإنسان أن يدرس العلم ويقف عند الآيات والمعجزات ، ويتعجب من إبداع الخلق وهو جانع أو جاهل أو مريض ، وما أكثر الآيات التي تدعو إلى تسبيح الله - عز وجل - في كل وقت ، يقول الله - عز وجل : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } { ١٧ } وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } الروم : ١٧ ، ١٨ .

ويقول الله - عز وجل - { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ } { ٤٨ } وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ } الطور : ٤٨ ، ٤٩ .

ويقول جل وعلا : { وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ } الزخرف : ١٢ - ١٤ .

ألا تفيد هذه الآيات أن من مواطن التسيب أن نستوى على ظهور الدواب ، وكذا السيارات والطائرات ، وكل ما من شأنه أن يعرفه الحياة ، ويزيدها سعادة واستقراراً ، فمن رغب أن يسبح بحمد ربه فليسع إلى أن يحصل على سيارة تحمله ، وهو قادر على شرائها ، ولن يقدر على شرائها إلا بالعمل الذي يربح منه ما يكفيه ليعيش حياة كريمة ، ويزيد بما يمكنه من شرائها وشرائها غيرها .

وإذا كان الحق تعالى يأمرنا أن نسبح بحمده حين نصبح وحين نمسي وعند الظهيرة فمعنى ذلك أن هذه الأوقات أوقات عافية وخيرات ، لا أوقات أزومات ومعضلات .

ومن أدرك ذلك كان عليه أن ينظر في نفسه ، فقد يكون في نعم وخيرات وهو الذي يصطنع الأزومات بسبب نفسه الأمارة بالسوء والشيطان ووسوسته ، والثقافة الموروثة الخاطئة التي تجعله يرى جميع ذلك متمثلاً في شيء ما ، قد يكون غائباً ، لكن غيره - وهو كثير - يغنى عنه ، لكنه يصير على هذا الشيء الغائب ، الذي يرى في وجوده وجوداً لجميع النعم ، ويرى في انعدامه انعداماً لكل النعم .

ولعلك تقف عند حديث البخاري الذي ورد فيه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو المثال في العبادة والمعاملة والتسبيح دخل على أهله ، فسألهم طعاماً ، فقالوا : ليس عندنا إلا الخل فقال عليه الصلاة والسلام : "نعم الإدام الخل" .

وكثير من الناس يجد خلأً وزيتناً وزيتوناً ، وصنوفاً من النعم فلا يمدح ذلك ولا يطيب له مثل هذا ؛ لأنه قليه غير صاف ، وداخله به أقدار ، فهو لا يفرح بنعمة لتعلقه بنعمة غائبة .

ولاشك أن التفكير في الغائب سوف يسنى التفكير في الموجود من النعم وعدم التفكير في الموجود لن يؤدي إلى شكره ، وعدم شكره نذير بزواله .

٤- ومن الأقوال التي ترضيه سبحانه وتعالى أن يقول الذى نجاه الله
"الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين" قال الله - عز وجل - فى آية
المؤمنون (٢٨) : { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } .

ولاشك أن قبل هذه النجاة أعمالاً على من يرغب فيها وفى القول الذى
يحببه الله عز وجل ويرضاه أن يعملها فقد صنع نوح - عليه السلام - الفلك ،
ودعا الله ، ونجاه الله من الكاذبين الذين دعاهم ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ،
فقال الله له : فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا
من القوم الظالمين .

فلا يقولن أحد : اللهم نجنى من القوم الظالمين حتى أقول هذا القول
دون عمل وجهاد ، وسعى إلى تلك النجاة .

رب أنزلنى منزلاً مباركاً :

فى آية المؤمنون (٢٩) يقول الله - تعالى - : { وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً
مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } فمن الكلمات التى يحبها الله - عز وجل - هذه
الكلمات ، التى أوحى بها إلى نوح - عليه السلام - إن قوله له فى الآية
(٢٨) : { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } أى بعد حمد الله - عز وجل - على نعمة النجاة من
الظالمين ، والاستقرار على الدابة التى ينجى الله على ظهرها من آمن به ،
يقول من فى طريق النجاة : { رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ }

نعم الله عز وجل خير المنزلين ؛ لأنه يستجيب دعاء من دعاه بأنه ينزله
منزلاً مباركاً وهو ساع إلى هذا المنزل ، كما سعى عبد الله ورسوله نوح -
عليه السلام - وركب هو وأهله ومن آمن معه السفينة التى صنعها بيده .

وبما أن فى القرآن الكريم : { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } و { وَكَذَلِكَ
نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } فالمؤمنون يتوكلون على الله عز وجل حق توكله بالسعى
، والأخذ بالسبب مع الاعتقاد أن الله تعالى بمشيئته وحكمته ورحمته ينجح
الساعى إلى خير معضد ، ويهديه إلى صراط مستقيم .

ولاشك أن المكان المبارك أو المنزل المبارك هو ما غشيه البركة من
مساحته الواسعة ، وأرضه المثمرة ، وناسه الطيبين المؤمنين ، وسكانه
الذين يعمرونه بالخير وذكر الله - عز وجل - وقد روى البخارى فى
صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن إبراهيم - عليه السلام -
زار ولده إسماعيل فلم يجده ووجد زوجته فسألها عن أحوالهم فقالت سوءاً ،
فأوصاها أن تخبر زوجها إذا جاء أن شيخاً كبيراً زارهم صفته كذا وكذا
ويقول له : غير عتبة بابك ، فلما جاء وأخبرته عرف أنه أبوها ، وطلقها ،
وتزوج بعدها امرأة أخرى ، فزاره أبوه فلم يجده ، فسألها عن أحوالهم
فقالت : فى خير حال ، وقدمت له اللبن والتمر ، وعلفا لدابته ، فأوصاها
بأن تخبر زوجها بتلك الزيارة وأن تقول له : لقد استقامت عتبة بابك ، فدعا
لها بالبركة .

فالعتبة لم تتغير من حيث كونها عتبة ، إنما عتبة الباب الحقيقية فى
سكان المنزل لا فى العتبة الخشبية ولا فى موقع معين ، ولا فى غير ذلك ؛

لأن البيت بالسكان لا بالجدران فلا يصح أن يدعى أناس غير هذا زاعمين أن هناك عتبة شؤم ، بسبب مَنْ سكن قبلهم ، أو بسبب الجن الذين يسكنون المكان ، وغير ذلك من الخرافات ، لقد بنى النبي - صلى الله عليه وسلم - مسجده الشريف ، وحجراته المباركة فى مكان كان مقابر للمشركين ، وموضعا للنفايات ، فانظر كيف صار ، لقد حلت البركات فيه لوجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه ، وصار مسجده الصلاة فيه بألف صلاة فى أى مسجد سواه خلا البيت الحرام والمسجد الأقصى وكل من المساجد الثلاثة تشد له الرحال ، وكلها مباركة .

وقل رب أدخلنى مدخل صدق :

وفى آية الإسراء (٨٠) يقول الله تعالى : {وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخِلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا} ما أطيب هذه الكلمات التى جعلها الله - تعالى - وحيا وقرأنا يتلى إلى يوم القيامة ، وما أطيب معناها المشتمل على الصدق فى البدء والختم ، والدخول والخروج ، وفى الحياة وبعد الممات وكم من إنسان دخل صدقا وخرج كذبا ، والعكس ، والأعمال كما جاء فى الحديث "إنما الأعمال بالخواتيم" ولكن ما أسعد هذا الذى نشأ فى عبادة الله ، وترعرع على معية الله ، وبلغ من العمر ما بلغ وهو على ثبات ويقين حتى لقي الله - تعالى - وهو عنه راض .

ورب إنسان يدخل السوق ، وهو عازم على الأمانة فيعود منه وقد

خان .

ورب إنسان تزوج كما يقولون على الحب ، وتنتهى الزيجة على فشل كبير ، وقد يقتلها أو تقتله .

ورب رجل سأل الله ولداً ، حتى جاءه ، وفرح به وكان كالغلام الذى قتله العبد الصالح ، لكنه لم يقتل بل عاش فأرهبه ، وربما قتله يتعجل موته كي يرثه فما أطيب أن يدخلنا الله مدخل صدق ، ويخرجنا مخرج صدق ، ويجعل لنا من لدنه سلطاناً نصيراً .

وهذا الدعاء بالذات : "واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً" له دلالاته فى ضوء القرآن الكريم ، وهو أنه يشعر الداعى بأن له من لدن الله تعالى سلطاناً نصيراً ، لا دخل للسبب فيه ، ألا ترى إلى قوله - عز من قائل - : {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} فقال مع الرحمة "عندنا" لأن فيها واسطة ، حيث رحمته أمه ، ورحمه أبوه ، ورحمته نعم الله عزوجل . من طعام يشبعه وشراب يرويه ، وغير ذلك ، وكلُّ من عند الله ، أما العلم فقال معه "من لدنا" لأنه لم يكن له معلم من الناس يعلمه .

والله تعالى يقول على لسان عبده ورسوله زكريا - عليه السلام - : {فَهَبْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا} مريم : ٥ ؛ لأنه بلغ من الكبر عتياً ، وامراته عاقر .

ويقول ربنا - تعالى - فى آية الأنبياء (١٧) : {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} فليس الله - عزوجل - فى حاجة إلى

وسيلة أو عون من أحد حتى يتخذ ولداً - والعياذ بالله - أو لهواً ، وما أطيب أن يكون للعبد من رب العباد من لدنه سلطان ينصره ويؤيده فاللهم اجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً .

حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله :

وفى الآية (٥٩) من سورة التوبة يقول الله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} .

هذه كلمات اصطفاها الله - تعالى - لمن يرغب فى الغنى وهى {حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} لكن صدر الآية مهم فى فقه هذه الكلمات ، حيث قال الله - تعالى - : "ولو أنهم" أى المنافقون الذين قال الله فيهم فى الآية (٥٨) : {وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} .

قال الله - عزوجل - : {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا...} فقبل هذه القول : {حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} حالة من الرضا لابد أن تتحقق ، وهذا مهم جداً فى فقه كل الكلمات الواردة فى الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، لأن كثيراً من الناس يتلهفون وراء معرفة الكلمات فقط ، يقول قائلهم "ماذا تقول عند الكرب ، والجواب معروف ، وهو دعاء يونس عليه السلام "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" ، لكنها معرفة ناقصة ، وتامها أن يكون

حال من يرغب فى معرفة هذه الكلمات كحال يونس - عليه السلام - فإنه عليه السلام حين قال "لا إله إلا أنت" كان مخلصاً لله الدين ، ولم يكن وحاشاه متعلقاً بأوهام وخرافات وأضرحة وغيرها مما يجرح العقيدة ، وحين قال "سبحانك إني كنت من الظالمين" كان عالماً بمقتضى التسبيح ، ومقتضاه أن ينزه العبد ربه سبحانه وتعالى متهماً نفسه هو بالنقص والتقصير ، الذين يقولون : يارب ، أنا أصلى وأصوم ، وأتصدق ، وأعتمر ، وأفعل الخيرات ، وأنا لم أخل من الابتلاء يارب لم تفعل فى هكذا ، يارب لم ابتليتنى بكذا ، لا يعرفون الله ، ولا يسبحونه ، إنما يسبحون الله باللسان والقلوب فى ريب ، محال أن يقول الذى يريد دعاء يونس هذا الدعاء وقلبه فيه شئ من ريب ، ويذوق حلاوة هذا الدعاء بأن ينجيهِ ، وقد قال الله فى دعاء يونس {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} الأنبياء : ٨٨ .

أجل ، إن المؤمنين الذين ينجيهم الله - عزوجل - كما نجى يونساً - عليه السلام - هم الذين يدعون بدعائه وحالهم مثل حاله ، أما إذا اختلفت الأحوال فلاشك فى اختلاف ثمرة الأقوال ، وإن كانت الأقوال واحدة فى حروفها وكلماتها .

ما يكون لنا أن نتكلم بهذا :

وفى آية النور (١٦) يقول الله - عز وجل - {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} .

وذلك فى سياق الإفك ، حيث خاض كبير المنافقين فى عرض أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وخاض بعض المسلمين على خوضه ، وأنزل الله تعالى من عليا السماء براءتها وأنزل سورة النور ، وبين فيها نوره ما ينبغى أن يقوله المؤمنون عند سماع مثل هذا الإفك ، الذى لم يؤتى فيه بأربعة شهداء ، وأنا أقول فى سياق التعرف على الله ذى الجلال فى هذا الفصل وهو مهم : إن الذين يقولون {مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} هم الذين يحرصون على رضا ربهم واتباع منهجه ، ومن اتباع منهجه تعالى موافقة كلمات التى اصطفاها لنا ، ومن ذلك هذا القول {مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} ولن يقول هذا القول إلا مؤمن ، لأن المؤمن لا يشتهى سماع الفواحش ، ولا يجب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، بخلاف المنافق ، ومن فى قلبه مرض الذى يشناق إلى سماع الأخبار السيئة ، وما فعلته فلانة وما كان من علانة ، ثم يقول آخر المطاف : الله أعلم بالحقيقة وعندنا بنات وربنا يستر على الجميع ، وليس هذا علاجاً لما اقترف من آثام ، وما ارتكب من خطايا ، فالعلاج توبة نصوح وهى تتحقق بأن يعترف المؤمن عن سماع الخوض فى الأعراض وقذف الغافلات المؤمنات ، وأن يقول إذا هم أحد بالكلام فى مثل هذا {مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} و "ما يكون لنا" لون من

ألوان النفى العظيم ، حيث إنه نفى الكينونة أى ما يصح وما يتصور ، وقد صح ما لا يصح ، وتصور ما لا يتصور مع الأسف ، وبات هذا النفى العجيب إثباتاً ، حيث كثرت مجالس الغيبة والنميمة ، ومعظمها والعياذ بالله فى الأعراض ، الأمر الذى ينذر بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا السياق يقول الله - تعالى - فى الآية (٢٠) من سورة النور : {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} .

"سمعنا وأطعنا" :

وفى آية النور (٥١) يقول الله - تعالى - : {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِحُونَ} .

قالها بلسان الحال خليل الله إبراهيم ، فصدق الرؤيا ، وهم بذبح ولده ، ومن قبل قالت أمه ، وهى تحمله طفلاً رضيعاً وأودعهما إبراهيم فى واد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، قالت يا إبراهيم ، هل أمرك الله بهذا؟ قال : نعم .

قالت : إذا لن يضيعنا .

فكان ما كان من نصر الله وتأييده والفلاح الذى حصلت عليه حيث نبع زمزم من تحت قدمى وليدها ، وجارها الطير دليل البشر الذين استأذنوهم فى العيش معها على أن الأرض أرضها والماء ماؤها .

وقالها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنذر ، والله كبير ، وصدع بما أمر ، وتدل مكة أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إلى قلبه ، فكانت للإسلام دولة هي المدينة المنورة ، وأذن له - صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين بالقتال ، فكان النصر ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وكيف لا يقول المؤمنون سمعنا وأطعنا والحكم حكم الله ورسوله ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون !

ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة :

وفي آية البقرة (٢٠١) يقول الله تعالى : { وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } .

وقد كان هذا من أكثر دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - فإله تعالى يحب أن يدعو عباده بهذا الدعاء الجامع لحسنتي الدنيا والآخرة وقد زعم بعض الناس أن حسنة الدنيا وقف على الزوجة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وفي ماله ، وهذا إن ورد تحت عنوان خير ما يؤتى المرء بعد تقوى الله الزوجة الصالحة إلا أنه ليس صحيحاً من تكون الزوجة الصالحة هي حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا كل ما من شأنه أن يجعل الدنيا حسنة ، من زوجة صالح ، ومال صالح للرجل الصالح ، وولد بار ، وأخ كريم ، وجار محسن إلى جاره ، وصحة في البدن ، وأمن في سرب ، وغير ذلك ، وهو الله كثير ، وأعلاه سلامة الدين من صحة العقيدة ، وصلاح العمل ، الذي يبارك الله فيه

وفي صاحبه ، وحسنة الآخرة برغم أنها تكاد تكون محصورة في جملة واحدة مبتدؤها حسنة الآخرة ، وخبرها النجاة من النار ، لكنها أكثر من أن تحصى ، ومنها النجاة من الفزع الأكبر ، وأهوال الساعة وأن يظل المرء بظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، وفيها دخول الجنة ، والفوز برضوان الله تعالى - ورضوان الله أكبر .

وهذا الدعاء الذي أنزله الله تعالى قرآنا يتلى إلى قيام الساعة ، ورضيه ، ووعد الداعين به خيراً حيث قال في الآية بعدها (٢٠٢) : { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } فيه كلام مهم ، حيث إنه يدل على سعة فضل الله - تعالى - وواسع رحمته بعباده ، وقدرته على إسعادهم في الدنيا والآخرة ، وفي سياق التعرف على الله - عز وجل - يطيب لي أن أذكر نفسي والقارئ الكريم بمن يحيرنا بين حسنة وحسنة في العاجلة إما ضعفاً منه وإما ضنكا ، فالرجل يقول لولده : إن ذهبت معي إلى الإسكندرية فلن تذهب معي إلى أسبوط في السفرة القادمة ، والرجل يقول لأخيه : اختر الأسود أو الأحمر يؤثره على نفسه في اللون ، لكنه محتاج كأخيه إلى رداء ، أو قلم ، أو جهاز ، قال من يقول : اطلب ما تشاء تجد ، وسل تعط ، والذي يقول لك هذا القول النادر ؛ لأنه إنسان نادر كذلك لا يستطيع مهما أوتى أن يقول ، وسل من أمور الآخرة ما تريد فهو في الآخرة مع الفارين ، حيث كل امرئ بما كسب رهين ، فإله واسع ، والله كريم ، هذا ، ويطيب لي أن أنبه إلى بعض المذاهب غير الصحيحة التي

إن الذين نجحوا في الاختبار هم الذين قالوا ، فالنجاح في الاختبار سابق على القول ، فما أطيب القول المعطر بأزيج النجاح في الاختبار ، ونحن اليوم مبتلون بأنهار ، لا بنهر واحد ، بالربا والزنا والمال ، والكراسي ، وغيرها من صنوف الفتن ، فمن أمسك بعزم الأمور ، ونجح في الاختبار ، ودعا الله أجاب الله دعاءه ، وهذا مما يستند عليه الدعاء في الإسلام ، والذي هو من ركائزه ودعائمه ، والقاعدة العامة في هذا أن الدعاء في الإسلام ملتبس بالعمل .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا :

وفى خاتمة البقرة (٢٨٦) يقول الله - عز وجل - : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } .

وبإجماع أهل العلم الدعاء أعلاه دعاء القرآن الكريم ، وهذا كلام الله عز وجل ، وقد جاء في هذا الدعاء :

١- ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

فالنسيان وارد والخطأ لا يسلم منه بشر ، لكن لا يعتمد المسلم النسيان ، ولا يتناسى حتى لا يتحول التناسى إلى نسيان ، ولا يصر على الخطأ ، فإن الإصرار على الصغيرة كبيرة .

تقول : " لا نريد من الدنيا شيئاً ، نريد أن يرحمنا الله في الآخرة ، والذين يدعون أن الدنيا ليست للمؤمنين كذلك ، ليس هؤلاء وهؤلاء على صواب " .

ربنا أفرغ علينا صبراً :

ويقول الله - عز وجل - في آية البقرة (٢٥٠) : { وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } .

فانظر إلى نتيجة هذا القول في الآية بعدها (٢٥١) حيث قال الله تعالى : { فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } .

ونحن في سياق التعرف على الله ذي الجلال تقول : ولابد لنا أن نعرف أن الذين قالوا هذه الكلمات هم الذين نجحوا في الاختبار فلم يشربوا من النهر إلا من اغترف غرفة بيده ، قال تعالى في الآية (٢٤٩) : { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقو اللَّهَ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } .

وفى آيتى آل عمران (٨ ، ٩) : { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } .

وقد جاء فى البخارى وغيره من أصحاب السنن أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان من قسمه أن يقول : " لا ومقلب القلوب " ومن دعائه : " يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك " .

والله يجب أن ندعوه بهذا الدعاء "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا" وكأن الله - تعالى - يحب أن يثبت قلوب عباده بعد إذ هداهم وإذا كان الدعاء كما قلت وأقول دائما ملتبسا بالعمل فما العمل المطلوب من أجل هذا الدعاء .

والجواب أن أعظم العمل المطلوب من أجل هذا الدعاء هو الاستقامة على منهج الله عزوجل ، قال النبى - صلى الله عليه وسلم - قل آمنت بالله - تعالى - ثم استقم ، والدوام على الطاعة فقد روى البخارى قول النبى - صلى الله عليه وسلم - حين سئل عن أحب العمل إلى الله : أدومه وإن قل ، وكذا البعد عن الفتن بمقتضى هذا الدعاء :

١- الاستعانة على منهج الله عزوجل .

٢- والدوام على الطاعة .

٣- واجتناب الفتن ، ما ظهر منها وما بطن .

٢- ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا .

وفى هذا الدعاء تذكّر لرحمة الله تعالى بنا ، حيث رفع عنا ببركة رسوله - صلى الله عليه وسلم - إصرنا والأغلال التى كانت علينا .

٣- ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به .

وقاية بمن يدعو هذا الدعاء ألا يحمل نفسه ما لا طاقة له به فمن يسر يسر الله له ، ومن عسر عسر عليه ، ومن باب رد العجز على الصدر فقد مرت بنا فى سورة البقرة قصة بنى إسرائيل إذ أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، فظلوا يقولون : ما هى؟ ما لونها؟ ما هى حتى شق عليهم ، ولو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم .

٤- "وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الكَافِرِينَ" .

والله عزوجل أهل العفو وأهل التقوى وأهل المغفرة ، وقول الداعى "أنت مولانا" فيه توسل إلى الله عزوجل بما هو أهله ، فهو ولى الذين آمنوا ، ومن كان الله - عزوجل - ولىه فقد فاز فوزا عظيما .

والدعاء بالرب من أحب الألفاظ ، وقد ذكر ابن عبد البر فى التمهيد أن الإمام مالكا - رحمه الله - سئل عن الألفاظ التى يستحب أن يدعو بها ، هل هى اللهم ، أو يا الله ، فقال رحمه الله : أحب أن يدعو بدعاء النبيين : ربنا ... ربنا ... ربنا ...

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

ومن قال : ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد كأن عليه أن يفقه ما يقول ، وأن يتصور أن يومه الذي يعيش فيه هو آخر أيامه في الدنيا ، فإذا أمسى فلا ينتظر الصباح وإذا أصبح فلا ينتظر المساء ، والمسلم بحكم قلبه وعقله ودينه أية في العبودية فهو لا ينتظر الصباح إذا أمسى ، ولا ينتظر المساء إذا أصبح على المعنى الصحيح ، وهو توقعه الرحيل فيها ، فلا يغرق في حب الحياة الدنيا ، لكنه يعمل لها ، وكأنه يعيش إلى الأبد ، وتلك المعادلة آية من آيات العبقريّة فيه، إذا تحققت عمل للدنيا وهو يرجو الآخرة ، فلم نعيش في بناء ولا في معاملة، ولا يسكن أثر عمله الدنيوي في قلبه ، فقلبه معلق بالله عز وجل ، يرجونا عنده وما عند الله خير وأبقى ، إنه ليس كالذين قالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، وليس كالذين اصطلحوا على تطبيق الحياة الدنيا طلاقاً لا رجعة فيه ، فأهملوها وسلموا مفاتها لغيرهم ، فتقدموا ، وحفروا أسماءهم على جذر المجد ، أما هم فقاموا وانتظروا الموت راجين حسنة الآخرة وهذا ما أنزل الله به من سلطان.

أسلمت وجهي لله ومن اتبعن :

وتأمل هذه الكلمات ، وهي لاشك من الكلمات التي يحبها الله عز وجل حيث قال تعالى في آية آل عمران (٢٠) : {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} .

وكثير من الناس إذا ذكرت هذه العبارة "أسلمت وجهي لله" أو أسلمت وجهي إلى الله ، قال : نعم نعم ، وهز رأسه ، وكرر وراء القائل : أسلمت

وجهي لله ، والنعم ... ولكن في الكتاب الكريم درس مهم في هذا ، هو ما خصصت له دراسة مستقلة "الحال بمعنى الشرط" فقد قال الله - تعالى - : {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة : ١١٢ .

فالحال التي بمعنى الشرط قول الله تعالى "وهو محسن" فما كل من ادعى أنه أسلم وجهه لله محسناً ، بل منا من يقول : أسلمت وجهي لله ، وإلى الله وهو مسيء ، من جرح في عقيدته وتواكل وغير ذلك .

فإسلام الوجه لله تعالى شرطه الإحسان ، ولن يكون الذي يسلم وجهه لله محسناً إلا إذا عبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه - عز وجل - يراه ، وخلاصة القول التي تغني عن تفضيل كثير أنه إذا اتبع منهج ربه ، واقتدى بسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقد أحسن ، فإذا كان على منأى من ذلك فقد أساء ، فإن قال وهو مسيء : أسلمت وجهي لله فليراجع ماله حيث إنه في الحقيقة لم يسلم وجهه لله ، وليس من المقبول أن يقول الغاش : توكلت على الله ، فهل يعقل أن يتوكل على الله غاش .

وقولوا لله حسناً :

وفي آية البقرة (٨٣) يقول الله - عز وجل - : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ} .

والحسن ما حسنه الشرع ، فنحن نقول للناس حسناً عند اللقاء بتحيةة الإسلام "السلام عليكم ورحمة الله" ونحسن وداعهم نستودع الله دينكم وخواتيم أعمالكم ، وقد جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يودعه قبل سفره ، فدعا له - صلى الله عليه وسلم - بأن يطوى الله له الأرض ، ويهون عليه بعده ، وأوصاه بتقوى الله عزوجل .

ونحن نقول للناس حسناً إذا جاءونا ولم نجد ما نعطيهم لهم ، قال الله - تعالى - : { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا } الإسراء : ٢٨ .

وقد ذكر العلماء طائفة من هذا القول الميسور ، منها إن شاء الله شائبي الخير وأعطيك ، وفرج الله قريب ، وسوف أرسل إليك بإذن الله ، ونحو ذلك ، وذلك إذا جاء أصحاب الحقوق إليك من أول الأب واليتامى والمساكين ، ومن قال لهؤلاء القول الميسور يسر الله له ، وأعطاه ، وقد عبر النظم الجليل في هذا السياق بقول الله تعالى : { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا } فقد قدم الله القول الميسور قبل أن يقدمه المنعم عليه إلى من يأتيه عن السابقين ، فعبر بالرحمة وبالرجاء ، ولا شك أن رحمة الله قريب من المحسنين .

ما لا يرضى من القول :

ذكرت آية النساء بيانا لكل من كان خوانا أثيماً ، وذلك قول الله تعالى { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } النساء : ١٠٨ .

وقصة الآيات معروفة ، وهى أن مسلماً سرق ، وترك سرقة عند يهودى ، فوجدت عنده فاتهم بالسرقه لإحرازها فقال : هى لفلان ابن الأبيرق ، وضعها عندى ، فهمت طائفة من قبيل التعصب للمسلم بإقناع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن اليهودى هو الذى سرق ، حتى كاد - صلى الله عليه وسلم - يثبت ذلك ويحده ، فأنزل الله - تعالى - تلك الآيات : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَلَا تُجَادِلْ عَنَ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا . وَمَن يَعْمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا

يَضْرُوبُكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا { النساء : (١٠٥-١١٣) .

والشاهد فيها هنا قول الله - تعالى - : "إذا بيتون ما لا يرضى من القول" وفي الكشف للزمخشري ٥٦٢/١ أن ذلك معناه اليمين الكاذب ، أى يمين الذى سرق ، ويحلف أنه ما سرق ، أو حديث النفس برىء اليهودى بالسرقة ، وسمى قولاً : لأنه حديث ، وإن كان فيما بينه وبين نفسه .

وأنا أحمل على ذلك يقيناً مذكرات السادة المحامين فى الدفاع عن المجرمين لتبرئتهم وهم يعلمون أنهم مجرمون ، بدليل قول الله - تعالى - : { هَآأَنْتُمْ هَآؤَلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا } .

وأحمل عليه كل قول بالليل والنهار يراجع المرء فى نفسه ، أو يسربه إلى خاصته ، وهى فى سياق التنجيب ، أى الإفساد ، تقول له كذا وكذا ؛ كى يطلقها ، وتقول له كذا وكذا كى يضربها علقه ساخنة .

وما أكثر الذين يدبرون الأقوال ويفصلونها تفصيلاً وكأنهم شياطين ، يعرفون أن هذه الكلمة تحمل الزوج على الغضب اليسير ، وأن هذه الكلمة تحمله على غضب أشد منه ما هذه فتحدث فيه ثورة ، وتلك تجعله يطلقها على طول أما هذه ، فلا داعى إليها ؛ لأنها تحمله على قتلها ، وحرام أن يضيع مثله بسببها .

وفى البخارى وغيره يقول النبى - صلى الله عليه وسلم - : "ليس منا من خيب زوجة على زوجها أو خادماً على مولاه" .

والتخيب أى الإفساد ، وما أكثر الذين يفسدون الناس بعضهم على بعض ، حقيقة ودعابة ، ألا ترى هذه الدعابة فى قول رجل لامرأة صاحبه "كيف تعاشرينه وما الداعى إلى البقاء معه ، إنه وإنه وإنه" والعكس وهات يا ضحك ، وهذا لا يرضى الله - تعالى - وإن كان من قبيل الدعابة ، إنما تكون الدعابة مقبولة إذا كانت حقاً ، كان صلى الله عليه وسلم "يمزح ولا يقول إلا حقاً" .

وبيننا وبين هذه الحقيقة مسافات طويلة ؛ لأننا والعياذ بالله فشلنا فى إضحاك الناس إلا عن طريق السب واللعن والقذف ، والسخرية والاستهزاء ، انظر إلى الأعمال التى تسمى كوميدية ، وتأمل الحوار الذى يضحك عليه الناس أو بسببه ، أحد المتحاورين يقول للآخر : يا ابن كذا ، أو أمك كذا ، أو يا أبا عين كذا ورجل كذا ، أو يلتقط كلمة منه ويكون جملة ذات معنى بعيد غريب ، لا صلة لها بالموضوع فضلاً عن دنس معناها فإن قال "عبلة" .

قال : أمك هَبْلة

وهات يا ضحك ، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى لكنها شاهدة على أن إضحاك الناس فى دين الله عبقرية ؛ لأنه حق ، ولكنه فى واقع تلك الأعمال التى لها فى الواقع وجود كبير دليل فشل ؛ فلا عبقرية فيها ، وإنما

هي إسفاف واستخفاف واستظراف بالحركة ، أى بالهمز واللمز "ويل لكل همزة لمزة" ولعل التعبير بـ "كل" يدل على عدم استثناء الإضحاك ، فإن كنت عبقرى تريد إضحاك الناس فابحث عن الكلمة التى لا تحمل أذى ، وليس فيها استهزاء ولا سخرية ولا تغمز بلسانك ووجهك ولا تهمز بلسانك وأرنا كيف تضحكهم .

لقد روى الزمخشري فى الكشاف ٥٦٣/١ هذا الحديث : "كلام ابن آدم كله عليه لا له ، إلا ما كان أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو ذكر الله" قال : وسمع سفيان رجلاً يقول : ما أشد هذا الحديث ؛ فقال : ألم تسمع الله يقول : { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } النساء : ١١٤ .

فإذا كان كلام ابن آدم كله عليه إلا ما استثنى ، فإن هذا الاستثناء هو الذى يعول عليه ؛ حيث إن فيه رضا الله رب العالمين ، وما عداه فكلام لا يحبه الله ، وكل ما لا يحبه الله لا خير للمرء فيه ؛ لأنه مقت ، وساء سبيلاً ، وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الكلمة من رضوان الله - عز وجل - يقولها المرء ، لا يلقي لها بالاً فيدخل بسببها الجنة ، وأن الكلمة من سخط الله ، يقولها المرء لا يلقي لها بالاً ، فيدخل بسببها النار ، أى أن الكلمة قد تكون من رضوان الله أو من سخطه ولا يلقي لها بالاً ، بعبارة أيسر : قد يظنها تافهة من هنا أو من هناك ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : { إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } .

فالذى يحسبه الإنسان هيناً وهو عند الله عظيم ما يقوله الخائض فى الأعراض من نال منها ونالت منه ، وما تركها وما تركته ، وكان ما كان ، وقد كره الله لنا "قيل وقال" .

إن الله كره لكم قيل وقال :

نعم قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "إن الله كره لكم "قيل وقال" وكثرة السؤال ، وإضاعة المال" ثلاثة أشياء ، منها شيئان خاصان باللسان ، فاللسان مهم جداً ، حيث إنه أداة التعبير عما فى النفس من إيمان ، ويقين أو كفر وريب ، ومن معان وأغراض ، وفى الغالب يكون السؤال به بلا شك ، نعم قد يشير السائل براعته يقصد كيف؟ ولكن اللسان هو الأصل فى السؤال ، وكثرة السؤال إذا كانت للحاجة والتعلم فهى من الدين بمكان ومكانة ، وهى محببة مطلوبة ، لكن إذا كانت بهدف الجدل ، والمنازعة ، ومحاولة الانتصار على المناظر فليس هذا من خلق المسلمين ، وقد قال الله - تعالى - : { فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } وهذا كما قلت دائماً من باب أولى ، أى من باب أولى فى الحج ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحياة لاسيما الحج ، فهو غير مقبول دائماً ، وفى الحج من باب أولى ، كالصيام ، من آدابه كذلك ترك قول الزور والعمل به فى الحديث : "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه" فهل قول الزور والعمل به يجوز فى ساعات الإفطار ، أى فى ليلة الصيام ، أو بعد رمضان لاشك أنه لا يجوز ، وفى رمضان من باب أولى ، وهكذا فاللغو مثلاً لا يحبه الله - عز وجل - وقد

قال في عباده الذين وعدهم بإتيانهم أجرهم مرتين : { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } القصص : ٥٥ .

وقال في عباد الرحمن في آية الفرقان (٧٢) : { وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } .

وتأمل قوله - تعالى - : { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } لتعلم أن أصحاب اللغو جاهلون ، وهذا دين العلم لا الجهل قال تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ومن آمن به : { فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } الأنعام : ٣٥ .

واللغو دليل على أن أصحابه من الجاهلين ، فابحث فيما تسمعه ، بل وما تشاهده من أعمال فنية كم من اللغو في حياتنا الواقعية والتخيلية ، لقد زاد اللغو فينا ، وشاع على ألسنتنا ، ومعنى اللغو ، كل كلام فارغ ، لا ضابط له ، وقد يكون اللغو جدًّا ، وعظيمًا ، وذلك إذا قيل هذا الجد العظيم في وقت معين ، لا يصح فيه الكلام أصلاً كمن قال لأخيه : أنصت ، والإمام يخطب يوم الجمعة ومن قال لأخيه : أنصت فقد لغا ، ومن لغا فلا جمعة له ، أى لا جمعة مباركة له ، فهذا دليل على أن الكلام الجميل في ذاته يخرج عن هذا الجمال ، فلا يصبح جميلاً إذا قيل في وقت نبه الشرع فيه إلى السكون والاستماع فهل يحب الله - تعالى - أن يتحاور اثنان في المسجد والإمام يخطب .

تماماً كما في رفع الصوت بالدعاء عده العلماء ومنهم ابن حجر في فتح الباري من العدوان في الدعاء ، والله لا يحب المعتدين ، فمع أنه دعاء ، والدعاء عبادة إلا أنه صار عدواناً ، والله لا يحب المعتدين ، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لمن رفعوا أصواتهم بالدعاء : اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، نهاهم - صلى الله عليه وسلم - من رفع الصوت بالدعاء لأنهم لا يدعون أصم ولا غائباً ، وقد روى أن الناس سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقریب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ، فأنزل الله عز وجل آية البقرة (١٨٦) : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } .

نعم صار اللغو ربما مضامين كتب ، وسودت به أوراق صحف ، فأنت تقرأ مقال هذا ، أو ذاك في صفحة كاملة ولا تخرج بقليل فائدة ، هذا فضلاً عن التواء الأساليب وانحراف التراكيب ، وقد كان التلاميذ منذ عشرات السنين يدرسون أثر الصحافة في اللغة ، ويحفظون مثل هذه العبارة "وقد أثرت الصحافة في اللغة حيث خلصت الأسلوب العربي من المحسنات البديعية المتكلفة ، وصارت العناية بالمعنى لا الشكل ، وأدى ذلك إلى سهولة الألفاظ وانسيابها" وأن ذلك كله ، أما الآن فلم تعد هناك عناية بمعنى ولا بلفظ ، وتستطيع أن تقف على الأخطاء بلا حصر ، بل مع مزيد من الأسف والأسى صارت خطب الجمعة أقرب إلى اللغو منها إلى الموعظة الحسنة ، فلا موضوع لها ، ولا أسلوب ، وهى عند كثير من

الخطباء مجرد رفع أصوات ومحاكاة لكبار الخطباء ، وأخطاء ، ونشرات أخبار ، وغير ذلك .

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول :

خلق الله الإنسان ، وعلمه البيان ، وهده في سياق نعمه عليه النجدين فهو يعرف الحق والباطل ، من المذاهب والاتجاهات ، ويعرف الطيب والخبيث من الكلمات ، وضرب له فيهما الأمثال ليتذكر هذا المعنى ، وهذا الفرق ، فينطق بالطيب ، ويمسك عن الخبيث : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } إبراهيم : ٢٣-٢٧ .

ويقول عزوجل في آيتي الحج (٢٣ ، ٢٤) : { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ } .

فالطيب من القول يحبه الله ، وما أيسره عند مَنْ وفقه الله تعالى والسوء الخبيث من القول لا يحبه الله - عزوجل - .

وقد قال الله - تعالى - : { لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا } النساء : ١٤٨ .

وأول ما يقرع الأسماء ؛ لأنه قرع القلوب قول الله - تعالى - " لا يحب الله " فالمسلم حين يسمع هذا الحب المنفى من قبل السميع العليم يتوقف مستعيذاً بالله عزوجل من كل شئ لا يحبه الله .

فإذا أكمل الآية ، وعرف أن الله عزوجل لا يحب الجهر بالسوء من القول أمسك عن هذا الجهر ، فإذا جاء عند قوله - تعالى - { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ } أى لكن من ظلم مستثنى من هذا الحكم ، فيجوز له أن يجهز بالسوء من القول ، وقد ذكر المفسرون أن معنى جهر المظلوم هو الدعاء على مَنْ ظلمه ، أو أن يرد عليه شتيمة ، فالظالم من بدأ بالشتيمة ، ومن الظلم أن يشتم المرء أخاه ، فإن رد عليه كان رده هذا مستقى من الجهر بالسوء من القول الذى لا يحبه الله عزوجل كذا قال الزمخشري في الكشاف ٥٧٥/١ .

والأحب إلى الله - تعالى - ألا يجهز المظلوم بالسوء من القول أيضا كما قال الزمخشري في ٥٧٦/١ ، وذلك فى الربط بين هذه الآية (١٤٨) والتى بعدها (١٤٩) من سورة النساء حيث قال الله - عزوجل - : { إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا } قال الزمخشري : "والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله "فإن الله كان عفواً قديراً" أى يعفو عن الجانبين مع قدرته على الانتقام ؛ فعليكم أن تقتدوا بسنة الله " .

وأذكر في التعقيب على ما ذكره الزمخشري حديث البخاري عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أنها سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن دعاء تقوله إن صادفت ليلة القدر فقال لها قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني.

فإنه عز وجل كما قال العلامة الزمخشري سنته العفو ، وهو عز وجل يحب العفو ، فمن عفا عن أخيه فقد دخل إلى الله - تعالى - من باب يحبه الله ، وما أكثر الأبواب التي يحبها عز وجل ، ومن هذه الأبواب باب العفو عن ظلم ، وهو من مكارم الأخلاق ، أى أن الذى يحبه الله أن يعفو مَنْ ظلم فلا يجهر بالسوء من القول ، فما بالك بالذى لم يُظلم ، ويسلط لسانه السيئ على كل إنسان فهو لا يعرف غير السوء من القول ، من أول سب الدهر ، وفى الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله تعالى يقول : لا تسبوا الدهر فأنما الدهر ، أى خالق الدهر ، وبيده سبحانه الليل والنهار .

* فسب الدهر من سوء القول الذى لا يحبه الله - عز وجل .

* وسب الرجل والديه من الكبائر كما جاء فى الحديث ، وذلك بأن يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه ، أى السب عن طريق التسبب ، ولاشك أن الكبائر فى صدر المحرمات ، وهى لا ترضى الله - عز وجل - .

* ومن باب أولى التسبب فى سب الله - تعالى - قال سبحانه فى آية الأنعام (١٠٨) : { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

انظر كيف نهانا الله - تعالى - عن سب الكافرين ؛ لأن ذلك يجعلهم يسبون الله الذى نعبد .

وهنا وقفة طيبة مهمة تتعلق بقول ربنا - تعالى - { كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ } .

وكأن الله تعالى يريد أن يقول : إن هؤلاء الذين يدعون من دون الله آلهة أخرى لما أثروا العمى على الهدى زينه الله لهم ، وتركهم لما يعتقدون ، وكذا كل إنسان اعتقد فى شئ ، يتركه الله - عز وجل - له ؛ لأن الله - الذى نجتهد فى التعرف عليه - غنى عن العالمين .

انظر لكى تفقه هذا المعنى إلى رجل ضل ولده عن الطريق الذى يبتغيه له وهو الحق ، تراه أسفاً عليه ، وإذا ذكره ، وهو الذى لا ينساه بكى ، وازدادت حسرته ، وما هكذا رب العالمين القائل فى آية النساء (١٣١) : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا } .

وقد ذهب المفسرون في تفسير الآية (١٠٨) مذاهب وصفها الرازي بالضعيفة، وقال إثر ذكرها في تفسيره الكبير ٥١١/٦ ما نصه: "ثبت أنه يمتنع أن يصدر عن العبد فعل ولا قول ولا حركة ولا سكون إلا إذا زين الله - تعالى - ذلك الفعل في قلبه وضميره واعتقاده".

ولا يختلف قوله - رحمه الله - عن أقوالهم ، فما فر منه وقع فيه ، والتأويلات التي وصفها بالضعف أربعة :

١- أن الله زين لهم ما ينبغي أن يعملوا وهم لا يفقهون .

٢- زيننا لكل أمة كافرة سوء عملهم .

٣- أمهلنا الشيطان حتى زين لهم .

٤- زيناه في زعمهم .

فالأقوال متقاربة ، والمراد - والله أعلم بمراده - أن مَنْ تولى فقد استغنى الله عنه ، قال الله ذلك وقال رسوله ، أما قول الله تعالى في سورة التغابن الآية (٦) : { ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } .

فانظر كيف قال الله - تعالى - : { فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } .

وأما قول رسوله - صلى الله عليه وسلم - ففي حديث الثلاثة الذين أقبلوا على مجلسه الشريف ، فوجد أحدهم فرجة فجلس فيها والآخر جلس حيث انتهى به المجلس ، والثالث خرج ولم يجلس ، فقال عليه الصلاة

والسلام في الأول : أقبل فأقبل الله عليه ، وقال في الثاني استحيا (أى أن يراحم الناس) فاستحيا الله منه وأما الثالث فقال فيه : أعرض فأعرض الله عنه ، وما أكثر الذين يعرضون ، وذلك لأنهم لا يجدون مكانا في الصدارة تكبرا منهم وتأففاً ، فالحمد لله غنى عنهم .

وأعود فأقول في الربط بين النهي "لا تسبوا الدين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم" وبين قوله تعالى : {كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ} هو بمثابة إقناع المسلمين بأن هؤلاء إنما يسبون الله ؛ لأنه قد زين لهم الكفر الذي اختاروه ، فطبع الله على قلوبهم ، وكأنه يقول : لا تتعجبوا إذا رأيتم منهم من يرد عليكم بسب الله الذي تعبدون ؛ لأنهم يزعمون أن آلهتهم خير .

وأنا منذ زمان طويل أدعو إلى التأمل في استثمار المعاني القرآنية ، وهذه الآية مهمة جداً في مجال الدعوة والتربية ، إذ على الداعية والمربي أن يفقه معناها ، بمعنى أن الناس جبلوا على ما اعتادوا ، فعليه أن يرفق بهم حين يدعوهم ، فلا يثور عليهم بسب ولعن وأنهم من أصحاب النار ، بل عليه أن يبين لهم ، وألا يخاطبهم بالأسلوب المباشر الذي يجعلهم نافرين ، وقد روى البخاري قول سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "إن منكم لمنفرين" وغضب - صلى الله عليه وسلم - غضبا لم ير مثله ؛ ومناسبة هذا الحديث أن رجلاً كان يتأخر عن صلاة الصبح بسبب أن رجلاً كان يصلي بهم إماماً ويطيل .

والمعهود عن سيد الوجود سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة خشية السامة ، فإذا كان من لا يسأم منه أحد

لطيبه قولاً وعملاً ورائحة وريحا وحسن عشرة وخطاب يخشى السامة فما
بالنا بمن هو دونه بمسافات يصح أن يقال فيها : تقصم ظهر البعير ، ألا
يخشى السامة وما يترتب عليها في الزمان الصعب من سوء أدب وما لا
يليق بمعاملة عالم والعلماء ورثة الأنبياء .

وقد كان من منهج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول
"ما بال أقوام" وفي أول حديث رواه البخاري في صحيحه عن عمر -
رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : "إنما
الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله
ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو
امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه" .

هكذا ب "مَنْ" الموصولة الدالة على العموم ، وكأنه - صلى الله عليه وسلم - يوقظ ضمير من يخاطبه بهذه الطريقة المثلى في الخطاب .

وكما يوقظ الحبيب حبيبه من منامه برفق حتى لا يفرغه فيصحو فجأة
على دعر يذهب عنه بهجته بنومه ، ويصدع رأسه ويكدر عليه رؤيته كذلك
يكون إيقاظ الضمير ، بل هو أصعب من إيقاظ البدن من سباته ، وكفاك
دليلاً على ذلك قول الله - ربنا - في آية النحل (١٢٥) : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ
رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } .

وإيقاظ ضمير الإنسان بالحكمة والموعظة الحسنة فيه من الرفق ما
فيه ، ومن الحكمة ألا يهجم عليه الواعظ وأن يختار الوقت المناسب ، وأن
تكون موعظته موجزة ، وأن يقدم الوعد على الوعيد ، والترغيب على
الترهيب ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - في آيتي الحجر (٤٩ ، ٥٠) : { نَبِّئْ
عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } .

وجاءت الآيات من بعدها بين الآيتين بمثابة التفصيل لهما والاستدلال ،
حيث جاءت إبراهيم البشري على كبر بسلام عليم من رحمة الله ، وجاء آل
لوط العذاب الأليم الذي استحقوه بكفرهم ، وسوء سلوكهم ، قال تعالى في
الآيات (٥١ - ٧٧) : { وَتَبَيَّنْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا
سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . قَالَ
أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بِشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَمَا
تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ . قَالَ فَمَا
خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنجُوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايِرِينَ . فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ
الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ .
وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ . وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ
هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون . قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكْ عَنْ
الْعَالَمِينَ . قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ

يَعْمَهُونَ . فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

وحسن الموعظة لا يعنى أنها كلمة جميلة فحسب وإنما يعنى دقة اللفظ، ووضوحه ليتضح معناه ، وإرسال القول مدعوماً بالدليل ، والوصول إلى الغاية من أقرب طريق ، ألا ترى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لمن أراد أن يرخص له فى الزنا : أترضاه لأمك؟ أترضاه لأختك فلما قال : لا ، قال : ما لا ترضاه لأمك ولا لأختك لا يرضاه الناس لأمهاتهم ولا لأخواتهم وقد وعظ - صلى الله عليه وسلم - رجلاً ؛ فقال له : عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به ، وكان يرى حاجة الرجل فيعظه بما يناسب حاله ، وما هو فى حاجة إليه ، وهذا الذى يعرفه العلماء بمطابقة الجواب للحال ، فقد يكون السؤال واحداً والجواب مختلفاً لاختلاف أحوال السائلين ، روى البخارى وغيره أن رجلاً سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أحب العمل إلى الله تعالى ؛ فأجابه : الصلاة على وقتها وسأله آخر السؤال نفسه ؛ فأجابه : الجهاد فى سبيل الله وسأله ثالث هذا السؤال ؛ فأجابه : بر الوالدين وهاجر - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة فوجد الناس فى المدينة يسلفون فى التمر ، فلم ينهمهم ، وإنما وجههم إلى حكم الشرع فيه أن يكون فى وزن معلوم أو كيل معلوم إلى أجل معلوم .

وسأل مَنْ جاءه بتمر خبير الجيد ، فقال : أكل تمر خبير هكذا؟ فقال : لا ، إنما نشترى هذا الخبيب (الجيد) الصاع منه بالصاعين من الردئ ،

فوجههم إلى غير ذلك ، بأن يبيعون الردئ بالدرهم ويشتروا الجيد ، وذلك لأن الجنس واحد ، فلا تجوز المفاضلة لأنها ربا ، ومن هذا وغيره نرى أن من حسن الموعظة ، ومن الحكمة كذلك أن تكون الموعظة ذات صلة بواقع الناس ، فلا يعظ الواعظ الفلاحين الذين يزرعون ويحصدون بما يعظ به التجار ، أو الصناع ، أو الأطباء ، أو المدرسين ، صحيح أن هناك قاسماً مشتركاً بين هؤلاء جميعاً وغيرهم من تقوى الله عز وجل ، ومن درء الفتن والمفاسد ، والمحافضة على شعائر الدين والاستقامة على منهج الدين ، وانتزاع الأمراض القلبية من الغل والحسد ، والتكبر والسخرية والاستهزاء وغيرها لكن مراعاة الحال واجبة ، حتى ينتفع الناس كل فى مجاله بتلك الموعظة ، فهو يعظ الفلاحين بأن يحافظوا على البكور ، ومراعاة الحدود فى الأرض ، وأن يرحموا أنفسهم وبهائمهم فلا يحملوها فوق طاقتها ، وأن يخرجوا زكاة زروعهم يوم حصادها مبيناً نصابها ومصارفها ، وأن يتعاونوا كغيرهم على البر والتقوى وأن يعطى مَنْ عنده لبن جاره من لبنه إن لم يكن له لبن فى بهائمهم ، وأن يعير أحدهم صاحبه ما يحتاج إليه من دواب تعينه على سقى الزرع وفلاحة الأرض ، وأن يذكروا الله - تعالى - عند البذر سائلين إياه نماءه ومعافاته من الأمراض التى تعتريه ، وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة التى تسبب إهمالها فى مجافاة بينهم وحسد ، وضغينة ، وعراك على أدنى سبب ، يؤدى إلى القتل ، وقد رأينا كثيراً من جرائم القتل بين الفلاحين بسبب أيهم يبدأ بسقى زرعه ، وغير ذلك .

وقد يكونون جميعاً من المصلين ، ويحضرون الجمع والأعياد ، ولكن ماذا يسمعون فى خطبها ، إنهم يسمعون كلاماً فى الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ، ومعظمهم لا اهتمام له بدرس اللغة والفصاحة وأترعوا من سماع قصص الرقائق التى لا سند لها ، وسرد قصص السابقين دون التركيز على العبرة منها ، وغير ذلك مما لا صلة له بواقع حياتهم .

ومثل ذلك يقال للمدرسين الذين هم فى حاجة إلى معرفة حق التلاميذ عليهم ، وأنهم يؤدون أشرف رسالة وأنبل غاية ، وفى الحديث الذى رواه البخارى يقول صلى الله عليه وسلم : "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" والدين دين العلم بوجه عام ، فخير الناس من تعلم الحساب وعلمه كذلك ، ألا ترى إلى قول الله تعالى { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فِىْ فَصْلَانَاهُ تَفْصِيلاً } الإسراء : ١٢ .

والعلم كما جاء فى الحديث الصحيح بالتعلم ، وكذا سائر العلوم من الكيمياء والفيزيكا ، والجيولوجيا ، والهندسة ، والطب ، وكل ما من شأنه أن يرقى بالحياة ، ويزيدها تحسناً وترفيهاً ، والمدرسون فى حاجة إلى تعلم درس الإتقان ، وفنون التربية ، ومراعاة ظروف الطلاب الاجتماعية والبيئية ، وإذا كان رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول : "لأن يهدى الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو كما قال بمعنى خير لك من الدنيا وما فيها" .

فإن الهداية ليست وقفاً على أن تدعوه إلى الصلاة فيصلى ، وإنما يتسع معناها إلى العلم ؛ لأنه نور ، والجهل عمى وظلام ، فمن علم جاهلاً علماً نافعاً فقد هداه الله على يديه ، من محو أمية وتعليم حساب وغيره ، وهكذا مع الأطباء والتجار وغيرهم .

ومن الجهر بالسوء من القول بلا شك هذا الداء العضال الذى يتمثل فيما يعرف بسب الدين ، وسب الدين آية تدل على الخروج منه { إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } النحل : ١٠٦ .

كما قال الله - تعالى - فأى إكراه وقع على هذا الشاب العايب الذى يخاطب أخاه قائلاً له : "يلعن دينك ودين أبوك" وأى إكراه وقع على هذا الرجل الذى يلعن دين زوجته ودينها دينه؟

وأى إكراه وقع على ذلك الادمى المنتسب إلى الإسلام فى البطاقة حين يقول لأى إنسان : إما أن تسكت وإما أن أسب دينك وألعن موتاك .

هذه جريمة هى منتهى الفحش ، وعلى من تعود لسانه تلك الفاحشة أن يتوب إلى الله عز وجل ، فإنها لأحدى الكبر .

ومن الجهر بالسوء من القول ذلك السباب واللعان ، والدعاء بالقطيعة وما هو محرم ، وفى الحديث : "ليس المسلم بسباب ولا لعان ولا فاحش" .

وقد لعن رجل دابته وهو فى مسير مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فأمره أن يرجع بها فقد استجيب له فيها وقال : لا عيش فى ركبا ملعون .

وقد جرى على السنة الناس الدعاء بالقطيعة لكل شئ فمن غاظها طفلها قالت : يقطع الأولاد والذين يريدون أولادا ومن سمع عن فساد موظف كبير قال : يقطع الوظيفة وسنينها ومن يرغب فيها ، ومن سمع عن ظلم غنى بسبب ماله قال : يقطع الفلوس .

وصارت الأدعية بالقطيعة على كل لسان إلا من رحم الله - تعالى - وهذا نذير شؤم ، ودليل فساد ، ورثناها ، وعلينا - ونحن نتعرف على الله عزوجل - أن نتخلص من هذه العادات السيئة ، فإنه والله أعلم قد استجيب لنا في ذلك ، حيث القطيعة التي نراها بين الولد ووالده ، وبين الأرحام ، وفي المال الذي إن توفر فلا يسد حاجة ، ولا نبليغ به غاية .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما روى مسلم في صحيحه يؤتى ببواكير ثمر المدينة ، فيفرح ؛ لأنه نعمة قادمة ويتذوقه ، ويعطيه أصغر من حضر مجلسه من الأطفال لأن الطفل لا جبن عنده ، ويدعو قائلا : "اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا" .

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم ، يدعو بالبركة والخير ، لا بالقطع واقتلاع النعم من جذورها لشئ غاظه ، فليس هذا مما يرضى الله عزوجل ! وهناك من يجهر بالسوء من القول عند المصائب ، فالتى مات ولدها الشاب في حادثة مرور ، بسبب منه أو من غيره ، تقول - وقد سمعت هذا - يارب ، يا ليتك لم تعطنى إياه ، وبالحرف الواحد سمعت امرأة تقول :

"أنا ما لحقتش أفرح بيه" وكان على هؤلاء أن يقولوا "إنا لله وإنا إليه راجعون" .

وقد مرّ النبي - صلى الله عليه وسلم - بقبر وقفت عنده امرأة تندب ولدها ، فقال لها : اتقى الله واصبرى ، ولم تكن تعرفه - صلى الله عليه وسلم - ؛ فقالت : إليك عنى ، فإنك لم تصب بما أصبت به ، فلما قيل لها إنه رسول الله ذهبت إليه فلم تجد عنده بوابا ، وقال لها : إنما الصبر عند الصدمة الأولى .

وليس معناه أن من لم يصبر عند الصدمة الأولى لا أجر له على صبره بعدها ، وإنما معناه كما قرر العلماء إنما الصبر ذو الأجر الكامل ، أو الصبر التام عند الصدمة الأولى ، والشاهد من الحديث أن المسلم عند المصائب لا يعترض على القدر ، فمن معالم الإيمان الرضا بالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره .

ومن ذلك الكلام بغير علم فى مسائل الدين وغيرها ، ألا ترى إلى قول الله تعالى فى آية النحل (١١٦) : {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَّنَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} .

ومن ذلك الكلام الذى لا يحبه الله شهادة الزور ، ومنه السكوت عن الحق ، قال الله تعالى فى آية البقرة (٢٨٣) : {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ} .

ومن القول الذى لا يحبه الله المن على المتصدق عليه ، ألا ترى إلى قول الله تعالى فى آية البقرة (٢٦٢) : {الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} .

وفى آية البقرة (٢٦٤) : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهَ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} .

الذين لم يعرفوا الله عزوجل :

ليس هناك أحد لا يعرف الله ، بدليل قول الله - تعالى - : {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} الزخرف : ٨٧ .

أى : ولئن سألت الكافرين المشركين من خلقهم ليقولن الله ولذا ختمت الآية الكريم السابقة بقوله تعالى {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} .

وقد قال الكافرون فى آية الزمر (٣) : {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} .

والذى يعتقد أن أحدا يقربه من الله تعالى غير عمله ما عرف الله عزوجل .

فالذين لا يعرفون الله كثيرون ، من الناس من عرف الله وعبد معه آلهة أخرى ، وهؤلاء ما عرفوا الله عزوجل .

وفى سير النبلاء للذهبي ترجمة لأحد العلماء الذين أرادوا أن يعرفوا مريدتهم شيئا مهما فى هذا السياق حتى لا يحزنوا من الذين يقولون بالجهة والتجسيد ، وأن هؤلاء ما عرفوا الله ، قال أحدهم لتلاميذه : إذا نزل إنسان بغداد وسأل عن بيتى أتقولون إنه يعرفنى إلى أن قال : فإن دله أحد الذين يعرفون بيتى عليه فذهب إلى بيت آخر ، أتقولون إنه يعرفنى ، فإن جاء بيتى ودخل ، وسلم على أحدكم باعتباره أنا ، أتقولون أنه يعرفنى؟ وظل يحاورهم بهذه الطريقة إلى أن قال لهم : فلو أنه عرفنى ، وسلم على ، وسمع منى ، ثم حدث عنى بخلاف ما سمع أتقولون إنه يعرفنى .

بهذه الطريقة أقول : إن كثيرا من الناس ومنهم أهل الكفر والإلحاد عرفوا الله وما عرفوه ، وتأمل فى هذا السياق وفيما ذكره الذهبي قول الله - عزوجل - {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} .

فانظر إلى قول الله - عزوجل - {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} وانظر للسبب الذى من أجله كان الحكم عليهم بأنهم ما قدروا الله حق قدره ، وهو قولهم : {مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ} ألا يقاس ذلك على كثير من الأقوال ومنها ادعاء أن الله تعالى لن ينجح سعى ساع إلى العلا وهو

ضعيف الأسباب ، يقولون : أتزعم أن مثل هذا التلميذ سوف يكون عالما ، وهو ابن بائع الصحف وابن بائعة الجرجير ! وكم قيلت هذه العبارة ونجح ابن بائع الصحف ، وصار من كبار العلماء .

وكم حكم الناس على مريض بالموت نظراً إلى الأسباب الطبيعية والعمليات الجراحية الشرسة التى أجراها ، يقولون : أتظن أن مثل هذا يعيش بعد كل هذا .

ومنذ قديم والناس يعلمون أنه كم من مريض شفاه الله ، ومات طبيبه والعود ، أى الزائدون له .

وقد روى البخارى أن رسول الله -- صلى الله عليه وسلم -- زار رجلاً مرض بالحمى ، وكان من عادته -- صلى الله عليه وسلم -- إذا زار مريضاً أن يقول له : طهور بإذن الله ، فلما دخل عليه وقال له : طهور ؛ تعجب الرجل وقال : طهور ، بل هى حمى تفور على رجل كبير ، تزيد القبور ، فقال -- صلى الله عليه وسلم -- فنعمة إذا ، فمات من غده ، وكان رسول الله -- صلى الله عليه وسلم -- يقول : لا بأس ، أذهب لبأس رب الناس ، اشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً ، ما قال ذلك -- صلى الله عليه وسلم -- فى زيارته لمريض خف مرضه ، والذى ثقل يقول له شيئاً آخر ، أو لا يقول له شيئاً ، بل كان يقول هذه الكلمات لكل مريض ، خف مرضه أو ثقل وهذا من اليقين بالله -- عز وجل -- الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى العظام وهى رميم .

إن الذين يفتنون بالأسباب فيحكمون النجاح إذا توافرت ، وبالفشل إذا انعدمت وقلت ما قدروا الله حق قدره ؛ إذ عليهم أن يقولوا إذا توفرت الأسباب : ننجح إن شاء الله ، وإذا انعدمت أن يقولوا : لو شاء الله لنجحنا ما لم يقصروا فى طلبها وتوفيرها .

والدليل على ذلك أن الرماة يوم لم يسمعوا كلام رسول الله -- صلى الله عليه وسلم -- يوم أحد أصابهم الفرح ، وقال الله عز وجل { قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } آل عمران : ١٦٥ .

وقد نصرهم الله يوم بدر وهم أدلة ، أى قلة { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } آل عمران : ١٢٢ .

ولكن انظر إليهم وقد توفرت لهم الأسباب فأعجبته يوم حنين ، حيث قالوا : لن نهزم اليوم من قلة ، فماذا كان ، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَثُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } التوبة : ٢٥-٢٧ .

وأية القول فى هذه المسألة أن الذى يتعرف على الله -- عز وجل -- ألا يفتن بسبب إذا توفر ، وألا يضعف توكله على الله إذا قل سببه .

وقد قال الله تعالى فى آية التوبة (٤٠) : { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا

تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

وما عرف الله من زعم أن هناك من ينفعه ومن يعبد غير الله -
عز وجل - ومن يعلم الغيب غير الله ، وغير ذلك من الأباطيل والخرافات ،
فالله وحده هو الذى يملك النفع والضرر ، ويكشف الضرر ، وهو وحده الذى
يعلم الغيب .

قال تعالى : { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
يَمْسَسْكَ بَخِيرًا فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { ١٧ } وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ { الأنعام : ١٧ ، ١٨ .

وقال سبحانه : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ
فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ . وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ } يونس : ١٠٦ ، ١٠٧ .

ما عرف الله امرؤ يظن أن حيواناً فى بيته يجلب له الرزق ، وقد
رأيت ذلك بعينى ، حيث كنت منذ ثلاثين سنة فى بيت رجل كريم ،
وشعرت بشئ يتحرك عند قدمى ، ففزعت ، فالبيت نظيف ، والحجرة التى
كنت أجلس فيها حجرة صالون ، ليس بها كراكيب ، معدودة كراسيها ،
معروفة ، وليس من خلفى ولا من أمامى كراتين وغيرها مما يمكن أن
يتسرب منه شئ من الهوام ، فضحك الرجل وأولاده لما رأوا منى من فزع

، وقالوا : إنها السلحفاة ، وأخذها الرجل من تحت قدمى ، واحتضنها وهو
يقول : هذه بركة البيت ، وسبب التوسيع علينا فهم يقولون : إنها مرزقة ،
قلت : مَنْ هؤلاء الذين يقولون؟ وإلى متى تقول هذه العبارة المرسلة المبهمة
غير المحققة والموثقة ، وما أكثر ما يقال ، وما أقل الصدق فيه .

وأذكر فى هذا السياق قول الزمخشري حين مر برجل كان يعرفه
على ضيق ذات اليد وقد تحسن حاله ، فسأله عن الجديد فى حياته ، هل غير
صنعتة ، هل أهدى إليه شئ ، فقال له : إنه قد تزوج ، فقال الزمخشري
تعرفت أن الله تعالى رزقه لما قصد الحلال ، ومر عليه بعد عام فوجد حاله
قد تحسنت أكثر ، وعلم أنه رزق بمولود وصدق أبأونا وأجدادنا حين قالوا
هذه العبارة التى هى من فيض رحمة الله وكتابه : كل يأتى برزقه والله
تعالى يقول : { نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } { الأنعام : ١٥١ .

ما قال الزمخشري : إننى وجدته فى سعة لأنه جاء بسلحفاة مرزقة ،
أو وضع خرزة زرقاء أو علق تميمة ، إن الذى استضافنى فأفزعنى مرتين
مرة بهذا الكائن الذى كان من قدرى أن يكون تحت الكرسى الذى جلست
عليه ، والأخرى حين قال لى : إن تلك السلحفاة من أول ما دخلت بيته وقد
تغير حاله ، وزار ماله .

وكننت على معرفة قريبة بهذا الرجل ، فقد تحسن حاله فعلاً ؛ لأنه
رقى فى وظيفته ، وزاد راتبه ، ولأن الله قد رزقه بفتاة كالقمر سماها
"هاجر" ولأن زوجته اعتكفت عن زيارة جاراتها "عمال على بطل" ثلاثة
أسباب جديدة بالبحث فيها ، فكيف عدل على السلحفاة ولم يعول على هذه

ويقبض الملايين (على عينك يا تاجر) والذي يسميها أهل الإنصاف (السرقه بالقانون) فتلك مكافأة ، وهذا بدل ، وذاك كذا ، بخلاف ما خفى ، وهو بلا شك أعظم .

لو عرف هؤلاء الله عزوجل لتفكروا فى أن هذا ضرب واضح من ضروب الشرك بالله - عزوجل - وتخلصوا منه ويقتضى هذا من غير شك أن يتفكروا فيما أودعه الله - تعالى - فيهم من قدرة علمية ، وموهبة قيادية ، فاستثمروها فى عمل الصالحات من خلال ما خولهم الله تعالى من وظائف فهذا سبيل تقدم الأمة .

ولدينا عشرات الاعتقادات الفاسدة فى مثل هذه الأشياء ، التى يمكن أن نجعلها فى عبارة واحدة النظر فيما لا ينفع على أنه نافع ، وترك النفع الحقيقى ، يقولون : أتدرى لماذا فسد منا كذا ، وليكن كسر طبق ، أو تلف فنجان من القهوة ، أو انقطاع التيار الكهربائى الذى تسبب فى تعطيل الثلاجة ، ففسد بعض ما فيها ... وغير ذلك - أن فلانا زارنا ، وهو شؤم ، وعينه مدورة ، والعين حق ، ومع التوكل على الله - تعالى - لا تضر ، ولكن هناك دائما ما يجب البحث فيه ونحن لا نريد أن نبحث فيه ، أننا أهملنا ، وكنا متوترين أو كنا معتقدين أن دخول هذا الإنسان علينا لن يأتى بخير فلم ننتبه ، ولم نركز فيما نعمل ، فأحرقنا طبختنا ، وكسرنا أوانينا ، وتقلت منا فنجان القهوة ، وقد يكون انقطاع التيار الكهربائى بسببنا ، ومن بيتنا فقط .

الأسباب الثلاثة ، وكل سبب فيها كفى بإذن الله تعالى أن يغير حاله ، ويحسن من وضعه ، فالترقية فى الوظيفة يتبعها زيادة فى الراتب بحق ، ومن قبله حمد الله وشكره عليها ، والشكر يزيد النعم قال الله - تعالى - {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} و"هاجر" جاءت برزقها ولزوم امرأته بيتها بركة من الله ، ودرء للفتن ، وهى متى تفرغت لبيتها رعته ودبرت فيه ، وحافظت على ما كانت تضيع بسبب دخولها على هذه وعلى تلك ونقلها للأخبار ، وتركها بيتها للإنهيار ، أو تترك هذا كله ، ونعول على سلحفاة .

والعجب كل العجب مما حدثنى به أكثر من ذى ثقة أن كباراً من المسؤولين يذهبون إلى دجال معروف يظنون وهو يوههم بذلك أنه وراء محافظتهم على كراسيهم ، وأعتقد من غير شك أن هؤلاء لن يقدموا خيراً للناس ، وهم - مع الأسف - قادرون على أن يقدموه بما وهبوا من عليا الشهادات ، والكفاءات التى سحبوا عليها ظلالاً سوداء من الدجل ، فغطتها ، فكيف يقدم الخير للناس من يزعم أن هذا الذى يقرأ الطالع والكف ويغمض عينيه ، ويتمم بكلمات غير مفهومة هو سر أسرار بقائه على كرسيه ، إنه لولا بغية الحياء والنفاق لأمر الناس أن يذهبوا إلى من يسميه شيخه ، ليقضى لهم حاجاتهم ويظل هو قابعاً على كرسيه ، لا يحرك ساكناً ، ولا يقضى مصلحة ، وإنما يكتفى بما يشبع لذته من هوى الوضع الاجتماعى ، وضرب السلام المعظم عند الدخول والخروج ، وعند تفقد المكاتب الخالية إلا من الموظفين المعينين من أجل الترحيب به كلما دخل أو خرج أو تحرك

وهذه الفتاة التى تأخرت عن الزواج وتقدمت بها السن يقولون : هناك من يعمل لها أعمالاً سفلية وأخرى علوية ، وما ذلك بحق ، فهناك شروط معجزة ، أو عوامل أخرى سبق أن أشرت إليها من سوء علاقة بيننا وبين الناس الذين يصدون القادم إليها فلا يعود .

وهذه الزوجة التى يسئ إليها زوجها لا تقول ولا تبحث فى سبب هى صانعة من نومها بالليل والنهار ، وعدم العمل على إبعاده ، من عدم العناية بنظافتها ونظافة بيتها ، وإمساكها عن قول السوء ، وجرحه فى شخصه وفى أهله ، وإيثارها أهلها على أهله وقومه ، إن من يتعرف على الله يجب أن يكون على منهج الله لا على منهج الشيطان ، وما أكثر الذين يتبعون منهج الشيطان .

والله ما عرفت الله :

فى موسوعة الفقه المبسوط لصاحبها السرخسى - رحمه الله - جاء أن رجلاً أقطع ، أى مقطوعة يده جاء أباً بكر الصديق ، فأنزله ضيفاً عنده ، وكان له رضى الله عنه داران ، دار لأهله ، ودار مجاورة لها لضييفه ، ولأنه حرامى سابق تحسسه الصديق - رضى الله عنه - بالليل ، فسمعه يقرأ القرآن فعاد إليه مرة أخرى فوجده يصلى ؛ فقال رضى الله عنه : ما ليك بليل سارق ، فلما اطمأن ونام ، وكان الصباح وجد ذهب أسماء قد سرق ونظر إلى هذا الأقطع ، وقد جمع الناس حوله ، وأخذ يدعو والناس يؤمنون :

- اللهم العن من سرق أباً بكر

- آمين

- اللهم عليك به

- آمين

- اللهم اكشف من سرق الرجل الصالح

- آمين

وإذا به يفاجأ بتاجر مصوغات يأتى ويقول : ماذا عندكم؟ فقيل له : إن ذهب أسماء قد سرق ، فقال : أهو هذا؟ فقيل : نعم ، فقال : هذا الأقطع هو الذى جاءنى به؛ فقال الصديق - رضى الله عنه - : والله ما عرفت الله .

نعم : ما عرف الله امرؤ قطع الليل قياماً وتسييحاً وذكرًا وهو عازم على السرقة.

وما أكثر الذين لا يعرفون الله على هذا المنوال .

الذين عرفوا الله عبادات فقط دون سلوك قويم يحول بينهم وبين معصيته سبحانه وتعالى ما عرفوا الله .

والذين يعرفون الله على أنه يرضيه تكرار الحج والعمرة وهم سارقون ما عرفوا الله عزوجل .

حدثنى ذو ثقة أن أحد رجال الأعمال استدعاه من أجل عمل ، وعرض عليه مبلغاً زهيدا من المال لا يساوى ما يبذله فيه من جهد ؛ فأنكر واستنكر ، وقال له : إنك تعرض على ألفين وأنا أستحق مائة ألف مع المجاملة ، فإن هذا العمل يقتضى بذل جهد مميت فى ستة أشهر ، فما تفعل الألفان ، يا رجل هذا حرام ، وتركه وانصرف ، وكان يحمل مجموعة من الكتب فتكرم رجل الأعمال بأن أرسل معه أحد عماله ليحمل عنه تلك المجموعة حتى يوصله بها إلى سيارته ، وفى الطريق من مكتبه إلى السيارة حاور العامل ، وسأله عن حاله ، ومن أى بلد وكان مما قال له : هل تزوجت يا ولدى؟ فقال : نعم والفضل لله ثم لفلان ، أى رجل الأعمال ، فقال : كيف؟ قال قال : أمدنى بعشرة آلاف أعانتنى على الزواج ، وهكذا

يفعل معى ومع غيره ، إنه رجل كريم ، يحب الصدقات ويفتح بيوتا كثيرة . فقال الرجل فى نفسه : على حساب أمثالى الذين يظلمهم ، يعطيهم الألف والألفين ويتربح من ورائهم الملايين .

ومثل هذا الرجل من الذين لم يعرفوا الله سبحانه وتعالى ، وما أشبههم بتلك التى قيل فيها : تزنى وتتصدق ، وكان الصواب أن قيل : يا ليتها م زنت وما تصدقت .

فليست الصدقة عند الذين يتعرفون على الله عزوجل مسوغاً أو كفارة للنهب والظلم ، وارتكاب الفواحش ؛ لأننا نؤمن يقيناً لا شكاً أن الله عزوجل - جميل يحب الجمال ، وطيب لا يقبل إلا طيباً ، فما الذى يفعل وهو مقبول من يتعرف على دين الله عزوجل بحق وعلم؟

مثل هذا التاجر أو رجل الأعمال عليه أن يعدل مع الذين يعاونونه ويعطى كل ذى حق حقه ، وسوف يبارك الله له ، ويجد وعد الله حقا ، بأن يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وعند ذلك يتصدق من مال حلال .

وعلى الذين يسرقون ويظلمون ويحجون ويعتمرون أن يتوبوا إلى الله، ويعملوا فى الحلال ، فإذا توفر لهم المال الحلال ولا أشك فى أنه سوف يتوفر - حجوا واعتمروا ، حتى إذا ما قالوا : لبيك اللهم لبيك نودوا من قبل الله ربنا : لبيكم وسعديكم بخلاف ما هم عليه حيث ينادون وكأنهم لا يسمعون بلا لبيكم ولا سعديكم مالكم حرام، وزادكم حرام ؛ فأنى يستجاب لكم!

إن المسلم يقع فى الذنب بلا شك ، لكنه يقع فيه على غير إصرار منه ولا خطة معدة لذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى آية آل عمران (١٣٥) {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} .

الفصل الرابع

ما عند الله

وفى سياق تعرفنا على الله ذى الجلال ربنا نقف على عدة قضايا أهمها :

١- أن أكرمنا عند الله أتقانا :

قال تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} الحجرات: ١٣.

والتقوى محلها القلب ، وقد روى البخارى فى صحيحه قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إن الله لم يأمرنى أن أفتش فى قلوب الناس" وبناء على ذلك فلا يصح أن يزعم أحد أنه أكرم من أحد ، أو أفضل من أحد بل لا يصح أن يترك الإنسان نفسه بغض النظر عن المقارنة ، ألا ترى إلى قول الله سبحانه فى آية النجم (٣٢) : {فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} بل على كل مكلف أن يجتهد فى ميدان التقوى ليتزود فإنها خير زاد ، وكلما اتهم الإنسان نفسه بالتقصير اجتهد فى نيل المزيد من الدرجات العالية، وقد قال الله - تعالى - فى آية الحجرات (١١) : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ} .

فقد نهى عن السخرية من الناس لاحتمال أن يكون المسخور منه خيراً من الساخر.

ولعلك أن تسأل هذا السؤال : ثم ماذا بعد الانتهاء عن السخرية؟ والجواب : أنه ليس مجرد الكف عنها ، وإنما يقتضى الانتهاء عن السخرية الاحترام والتوقير ومظنة الخير ، الأمر الذى يحقق السلام الاجتماعى بين الناس ، والمسارة فى الخيرات.

ولا يتنافى ذلك ونصح مَنْ تراه خارجاً عن تعاليم دينه ، أو هجر الفاحش البذئ المبتدع فهذا بلا خلاف بين العلماء يجوز هجره فوق ثلاث ولا يصح أن تقول فى رجل تبين لك أنه تارك للصلاة مخالف لتعاليم الدين إنه على صواب ، إنه خير منك وأنت تصلى وتتبع سنة خير خلق الله سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

إنما النهى عن السخرية التى تكون بسبب شكل أو طول أو قصر ، أو دماثة ، أو عرق ، أو قبيلة كما فى الهجاء المعروف .
إن الدين عند الله الإسلام :

ويقول الله - عز وجل - فى آية آل عمران (١٩) : {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} .

فليفرح كل ذى دين ومذهب يخالف الإسلام قليلا ، ولسوف ييكن كثيراً ؛ لأنه اتبع ما لا يقبل منه قال عز وجل فى آية آل عمران (٨٥) : {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}

أولاً : يقول الله تعالى فى آيات الرحمن (١٩-٢٣) : {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } .

ومرج : أرسل ، أى أن الله - تعالى - أرسل البحرين وأجراهما ملتقيين ، برغم أنهما مختلفان ، وهما ملتقيان فيما ترى العيون كما قال الزمخشري ، لكن من رحمته تعالى جعل بينهما حداً ، فلا يختلطان ، لا يبغي أحدهما على صاحبه .

وانظر إلى الثمرة المرجوة ، إنها من خليهما ، يخرج منها اللؤلؤ والمرجان .

فهلا أفاد الناس من ذلك ، أن يكونوا على خلاف بلا بغي! وأن يكون لهذا الخلاف

والله عزوجل فضل بعض الرسل على بعض ، مع أنهم جميعاً معصومون ، ومطهرون ، ومصطفون ، قال تعالى فى آية البقرة (٢٥٣) {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } .

فمسألة التفضيل فى سياق التعرف على الله عزوجل قائمة ، ولها أسرارها ، ومن أهم تلك الأسرار أن المفضل كل ذى قيمة فى ذاته ،

مسكين ذلك المحروم من الفوز العظيم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ذلك الذى يظن أنه يحسن عملاً ، وهو من الأخسرين أعمالاً .

ويكفى المسلم شرفاً أن يكون مسلماً متبعاً ديناً هو عند الله الدين ، ولذلك كان لنا معشر المسلمين الشرف فى ذلك ، وهو شرف لا يدانيه شرف ، ويربو فوق كل انتساب إلى قبيلة أو مذهب أو جاه أو سلطان ومن ثم وجدنا أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كان إذا أصيب أحدهم بشئ قال : الحمد لله الذى لم يجعل مصيبتى فى دينى ؛ لأن كل مصاب فيما خلا الدين هين ، وهذا بلا شك يقتضى العمل بمبادئه والالتزام بأحكام شريعته ؛ لأنه ليس مجرد النطق بالشهادتين ، بل إيمان وقر فى القلب وصدقه العمل .

وفضل الله النهر العذب على البحر الملح ، {هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِّتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} فاطر: ١٢ .

ومثل هذه الآية الكريمة تحتاج إلى وقفة تأمل وتدبر عظيمة ؛ لأنها بمثابة ورقة عمل فى الحياة ، تلك الحياة التى صارت اضطراباً وتنافراً واختلافاً بغياً ، لو استثمر معناها فى الخلاف وعدم المساواة لحصدنا الكثير من الخير .

وصفاته ، وأثره في تلك الحياة ومن ثمرات هذا التفضيل أن يفضل العبد ما فضله الله عزوجل ، فالقرآن الكريم كلام الله عزوجل ، وفضله على سائر الكلام كفضل الله - تعالى - على سائر خلقه ؛ فلا وجه للمقارنة أصلاً .

وكتاب الله - عزوجل - حافل بضمانات تفوقه وتفضله ، وصدق الله العظيم إذ يقول { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء : ٨٢ .

فالقرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكما ألفت من كتب في اللغة والبلاغة والنحو ، والتفسير وغيرها وجميعها تنهل من فيوضات هذا الكتاب العزيز ، وتعمل على خدمته ، وتفضيل الكتاب الكريم على غيره يقتضى توقيره ، والعمل به ، وخدمة اللغة العربية التي اصطفاه الله - عزوجل - لتكون لسانه ، فإن كان الهدف من دراسة العربية والعناية بها خدمة كتاب الله تبارك وتعالى كان ذلك عملاً وعبادة في آن ، وكان كذلك آية من آيات تفضيلنا ما فضل الله ؛ لأن من مقتضيات التفضيل العناية بالفضل ، والاهتمام به ، حتى في اللغة لدينا ما له الصدارة فيها والتصدير ، حتى ولو وقع خبراً حقه التأخير ، كاسم الاستفهام قال الله - تعالى - : { متى نصر الله } البقرة : ٢١٤ .

وكذلك العمل بما فيه ، وهو آية التفضيل ، بل لب معالمه ، فأنت ترى كثيراً من الناس يضعون المصاحف في أعلى مكان ، ويضعونها على الرؤوس ، ويعنون بتزيينها وزخرفتها ، وغير ذلك كالتقبيل ، وإهانة من يستخف بها ، بل إن الدنيا تقوم من أجل خبر يقول : يرى فلان وفلان من

الغرب حرق المصاحف يوم كذا ، فهل نحن فعلاً غاضبون لأننا نفضل كتاب الله على غيره ، وأننا نحبه ، وأننا وأننا ، فهل عملنا بما فيه ، أم أنها العناية بالشكل دون المعنى ، والظاهر دون الباطن .

وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله :

وفى آية البقرة (١١٠) يقول الله - عزوجل - : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } .

وفى الآية (٢٠) والأخيرة من سورة المزمّل يقول ربنا تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

وقد جمعت بين الآيتين الكريمتين لتكرار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فيهما ، وقد ذكر العلماء أن الجمع بين الصلاة والزكاة في الأعم الأغلب من آيات الذكر الحكيم معناه أن الذين يؤتون الزكاة في الغالب هم المصلون ، وأكرم به من معنى كريم ، صحيح هناك مَنْ يصلى ويذكرى ، وهناك من يصلى وهو بخيل ، وهناك من يذكرى ولا يركع لله ركعة ، والذين يتعرفون على الله ويحبون ما يحبه هم الذين يصلون ويزكون .

ثم يأت قوله - تعالى - { وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ } فى آية البقرة { إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } مقتضى البصر العطاء وكما

فعبر عن فرحه واستبشاره بقدومه رضى الله عنه ، فهل يستوى ذلك ومن رأى حبيباً يظن أنه يحبه عائداً فيقول : "أنت جئت؟!"
إن مقتضى البصر العمل ، إن رأينا خيراً حمدنا الله وإن رأينا منكراً غيرناه.

فإن كنا ننظر ولا نعمل شيئاً فتلك كارثة إن من مقتضيات البصر رؤية الهلال ، "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته".

ومن مقتضيات البصر معرفة البائسين ، "تعرفهم بسيماهم" البقرة :

٢٧٣.

قال الله - تعالى - فى الآية نفسها من سورة البقرة { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } .

ثم تأتى العندية الكريمة فى الآيتين دليل اطمئنان ، أى أن الخير الذى لا ينفع أحداً إلا من عمله عند الله فلن يضيع ، كل شئ عند غير الله يحتمل الحفظ والضياع ، ألا ترى إلى باب الأمانة فى الفقه الإسلامى ، كيف قال الفقهاء إن المال عند الأميين قد يسرق ، ولا يعرفه لأمانته بشرط أن يكون قد وضعه فى حرز حصين ، أما إذا أهمل فيه فهو غارم .

أما إذا كان مستودعاً عند الله ، فالخوف عليه بحال من الأحوال ، فالله خير حافظاً ، وما استودع شيئاً إلا حفظه سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

من مبصر ، ولا يعطى ، يراك ، ويكتفى بقوله "ربنا معك" أو يمضى الليمون ويمشى كالذى يمر بسيارته على رجل توقفت سيارته ، وبوسعه أن يعينه ، لكنه يمر وكأنه ما رأى شيئاً ، وقال ربما يكون موقفاً هيناً بالنسبة إلى غيره من مواقف الإبصار دون عمل شئ.

١- أبصر النبى - صلى الله عليه وسلم - التيهانى ، فلم يعرفه لتغير حاله ، فلما ذكره بنفسه قال : وما الذى غيرك؟ قال : من فارقتك لم أكل لقمة إلا بليل ، فقال ولم عذبت نفسك ، صم شهر الصبر .

٢- وأبصر - صلى الله عليه وسلم - فرجة فى قبر ولده إبراهيم بعد دفنه فأمر بتسويتها وقال : إنها لا تضر ولكنه تؤذى عين الرأى .

٣- وأبصر - صلى الله عليه وسلم - على عمر ثوباً بهياً فقال : جديد أم غسيل؟ فقال : غسيل يا رسول الله فقال : عشت سعيداً ، ولبست جديداً ، وميت شهيداً .

٤- وأبصر - صلى الله عليه وسلم - امرأة تبكى ، فسألها ما الذى يبكيك؟ أجماعة أنت؟ أعريانة أنت؟ قالت فرقوا بينى وبين ولدى يا رسول الله ؛ فأمر برد ولدها إليها .

٥- وأبصر - صلى الله عليه وسلم - نخامة على جدار المسجد فحكها بيده الشريفة ، ونظف مكانها .

٦- وأبصر - صلى الله عليه وسلم - جعفر بن أبى طالب وقد عاد من الحبشة ؛ فقال : لا أدري بأى الأمرين أسر ، بفتح خبير أم بقدم جعفر .

وفى آية النساء (٩٤) يقول الحق - تعالى - : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

مثل هذه الآية الكريمة فى سياق التعرف على الله - عزوجل - غاية فى الأهمية لتعلقها بما ذكرت من ولاية الله - عزوجل - وولاية الشيطان ؛ فإن من يتخذ الله - عزوجل - وليا يعلم أنَّ عند الله مغام كثيرة ، وما عند الله مضمون ، ولكن على منهج الله - عزوجل - تكتسب مغامه ، فالرجل لا يقتل الرجل بعد أن يسمعه ينطق بالشهادتين ظانا أنه قالها خوفا من السيف كما ظن أسامة بن زيد ، حين قتل رجلا من المشركين نطق بالشهادتين ؛ فقال له صلى الله عليه وسلم : وما تفعل فى لا إله إلا الله يا أسامة؟ وكررها على غضب حتى تمنى أسامة ألم يكن أسلم إلا فى هذا اليوم وأخذ يقول : قالها خوفا من السيف يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : فهل شققت عن قلبه ، وكانت هذه الحادثة سببا فى نزول هذه الآية .

وقاعدة العلماء تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أى أن العبرة فى الكتاب الكريم بالمعنى العام ، لا الخاص الذى نزلت بسببه الآيات ، أى يجب على كل مسلم ألا يتسرع فى عمل شئ منه قتل كافر نطق بالشهادتين ظانا أن ذلك النطق بسبب الخوف من السيف ، وليس نابعا من قلبه ، من أجل أن يأخذ سلبه ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام : "من قتل قتيلا

فله سلبه" ولكن هذا فى ميدان القتال ، وعلى وجهه ، وقس على ذلك مَنْ يرغب فى الكسب السريع ؛ فيتعدى حدود الله - عزوجل - بغش وخيانة وتجارة فى محرم ، يفعل ذلك كما قال الله تعالى فى هذه الكريمة من الآيات "تبتغون عرض الحياة الدنيا" .

وتأمل فى سياق التعرف على الله - عزوجل - ذلك وفى ضوء قوله عز من قائل : "فعند الله مغام كثيرة" فما سد الله بابا من أبواب الحرام إلا وقد فتح أمام عباده أبوابا لا بابا واحدا من الحلال ومن ذلك هذه الآية ، وكذا قوله تعالى فى آية النساء أيضا (٣٢) : { وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } .

فقد سد باب التمنى ، تمنى ما عند الآخرين وفتح بابا وهو بمثابة الأبواب حيث قال : "واسألوا الله من فضله" وفضل الله عظيم وواسع ، فلم تمنى ما عند الآخرين ، والذى أعطاهم يقول لك اسألنى من فضلى ، فعندى ما عندهم فأنا الذى أعطيتهم وزيادة ألا ترى إلى قوله - جل فى علاه - فى آية ق (٣٥) : {لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} .

وأنا أفهم هذه الآية فى ضوء ما نراه فى حياتنا فمن فى الناس لديه ما تشتهيه أحبته وزيادة ، حتى وإن كانت عنده زيادة ، وتكرر من أحبته طلب ما يشتهون فلا بد لهذه الزيادة أن تنفذ ، إن الزيادة التى لا يمكن أن تنفذ هى الزيادة التى عند رب العالمين ، الذى لو أعطى كل سائل مسألتة ما نقص ذلك من ملكه عز وجل شيئا .

ثم إننا نجد أغنى الأغنياء فى الأرض يستحيل عليه أن يخاطب الناس جميعاً بهذا الخطاب ، ويقول للجميع لكم عندى ما تشتهون ولدى مزيد ، فمن ذلك الإنسان الذى يكفى ماله كل سائل ، فضلاً عن كفايته وبقاء زيادة إنه يكفى أسرته ، أو أسرته وجيرانه ، وربما حيه الذى يسكن فيه ، أو قريته مسقط رأسه ، لكن أن يكفى جميع الناس فهذا كما يقول الناس أنفسهم : لا يقدر عليها إلا الله وحده ، فتبارك الله خير الرازقين .

أعظم درجة عند الله :

وفى آية التوبة (٢٠) يقول عز من قائل : { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } .

لا يهتم أن تكون عند الناس غير فائز ، إنما الذى يهم أن تكون عند الله فائزاً ، لأن ما عند الله هو المعول عليه ، ألا ترى هذه القضية فى حياتنا ، تفهمها ، وكلام الله - تعالى - أولى بالفهم والتدبر ، نعم فى حياتنا امرأة ينظر الناس إليها على أنها لا تساوى أية قيمة فى سوق النساء كما يقولون ، وهى عند زوجها حياته ، إذا حضرت فقد استجمع حياته ، وإذا غابت غابت حياته أو جزء منها وسائرهم يمين إلى هذا الجزء الغائب ، وهذا هو الرأى الذى يهمها .

وفى حياتنا امرأة على عكس ذلك ، يثنى عليها القريب والبعيد ، والصديق والعدو ، يرون فيها مع الأسف ما لا يراه زوجها ، فهو أشقى

الناس بها ، فما حظها من ثناء الناس ومديحهم ، وكيف يسعدها ذلك ، وأهم من فى حياتها عنها غير راض .

وهكذا ، قد يكون الولد عند الناس ذا شأن وعند أبيه شئ آخر ، فهو عاق ، وقد يكون الوالد عند الناس ذا منزلة ، وعند ولده فى حكم الميت .

ولاشك أن المؤمن بالله تعالى يعنيه أن يكون عنده من الفائزين وسبيل ذلك إيمان بالله ، وهجرة فى سبيله ، إن كانت قد انقطعت بعد الفتح ، فسيبقى معناها قائماً إلى يوم القيامة ، فالمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، وكذلك الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، فى وجوه الخير ، وهى معروفة ، وفى مواطن الدفاع عن العقيدة ، والأوطان ، والإنسان عرضه وماله ودمه ونصرة المظلوم ، والعمل على ازدهار الحياة ، وترفيهاها ، وتذليل سبلها ، حتى يتسنى للناس أن يعيشوها جميلة كما خلقها الله ، أنهاراً ، وبحاراً ، وسفناً تجرى بما ينفع الناس ، وزروعاً وثماراً ، وجنات ، وظلالاً ظليلة ، وحركة منافع لا مضار ، فصورة الكون كما جاءت فى كتاب الله عزوجل - صورة جميلة نضرة ، والناس هم الذين يقتلعون الأشجار ، ويحرقون الثمار ، وينشئون الحروب ، وكذا ما شرعه الله عزوجل من أحكام هى خير من قوانين الأرض الداعية إلى العفو والصفح وحقوق الإنسان ، والرفق بالحيوان ، ولو اتبع الناس أحكام الحق لرأوا الحياة على أكمل صورة من الجمال ، فالزواج سكن ومودة ورحمة ، والجيران إخوان ، والأبوة والأمومة دفء ، ورحمة ، وتربية ، وولاية ورعاية ، والنبوة بر وإحسان ، والأخوة نصرة ورحمة ، ودماء الناس وأموالهم وأعراضهم

حرام ، وذلك في المسلم وفي الذمي على سواء ، ولكي تتحقق هذه الصورة لابد من جهاد بالمال والنفس ، وبذل صادق ، ونية خالصة ، وأولئك عند الله هم الفائزون .

ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا وفي آية الدين (٢٨٢) من سورة البقرة وهي أطول آية في القرآن الكريم يقول الله - تعالى - : { وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا } .

وإذا كان العلماء يقولون إن الأمر في قوله تعالى من هذه الآية { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } للندب ، فإن هذا الندب شديد ؛ لقوله - تعالى - : { ذلكم أقسط عند الله } .

فما للناس يتأفف بعضهم عن الكتابه ، وقد رأينا أمة من الأموال تضيع بسبب عدم الكتابة ، وما في الكتابة إلا صون الحقوق للمال الذي هو عصب الحياة وقوامها ويقول الله - عز وجل - في آية الأحزاب (٥) : { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } .

أى انسبوا الولد (ذكر أو أنثى) إلى آبائهم فذلك أقسط عند الله ، فإن لم نعلم آبائهم فإخواننا في الدين .

لقد حرم الإسلام التبني ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تبني زيد بن حارثة قبل البعثة لما أثر البقاء معه على الرجوع إلى أبيه وأمه وقومه ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فلما نزلت الآية الكريمة دعى زيد بن حارثة ، ومع ذلك فما زال بعض الناس يكتبون بأسمائهم أطفالاً يكفلونهم ، والإسلام الذي حرم التبني لم يحرم الكفالة والرعاية فقد أوصى ربنا - تعالى - باليتامى ، وقال سبحانه : { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ } الضحى : ٩ .

وقال عز وجل : { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ } الماعون : ١ ، ٢ .

وفي الصحيح يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة" فما أقرب كافل اليتيم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأى خير يرجوه المرء قبل أن يلقي الله بعد هذا اليقين والاطمئنان إلى مستقبله بعد الموت، وهو قربه من خاتم النبيين ورحمة الله - تعالى - للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - في الجنة ، وسبيله إلى ذلك كفالة اليتيم لا كتابته بأسمائنا ، فلم الإصرار على ارتكاب مثل هذه المخالفة التي هي عصيان لله عز وجل ، ومفسدة حيث يترتب عليها تحريم حلال ، بأن يجوز للمكفول (المتبنى) أن يتزوج بابنة من كفله إن كانت له بنت، فكيف يتزوجها وهي أخته حتى على الأوراق ، وتحليل حرام فإن يختلى بزوجه على أنها أمه ، أو تختلى بالرجل على أنه أبوها ، وترث أو يرث ولا حق لها وله في هذا الميراث الذي يبنه ربنا - تعالى - بنفسه ، فلم يوكل به ملكا كريماً ، ولا نبيا مرسلًا!

ويقول تعالى فى آية التوبة (١٩) { أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } .

قد يظن الإنسان استواء بين طرفين ، أو زيادة طرف على آخر فى الفضل والخير ، وقد يكون ذلك صواباً ، وقد يكون خطأ ، والمعيار الذى نعرف به الصواب والخطأ ، ونميز به الصواب من الخطأ يختلف باختلاف الناس مشاربهم وموروث ثقافتهم وعاداتهم ، والذى لا يختلف فيه الناس أن يكون المعيار وحياً من عند الله - تعالى - هكذا فهم الصحابة وقد قدمت نماذج من ذلك فى هذا الكتاب كراى الحباب بن المنذر فى موقف الجيش يوم بدر ، وغيره وقد سأل رضى الله عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن كان هذا الموقف أوقفك الله إياه أو كان الحرب فلما قال له الحرب قال - أرى أنه غير مناسب ، ولعل هذا هو ما قرره العلماء من قولهم : لا اجتهد مع النص لأن النص قاطع ، والوحي قد يبدو فى الظاهر مخالفاً للقواعد المعروفة ، والخبرات المألوفة ، لكن المؤمنين يعلمون أن الله أعلم ، وأن وراء هذا الظاهر خيراً كثيراً .

وقد زعم بعض الناس أنه أفضل من غيره ؛ لأنه يقوم بسقاية الحجيج ، وعمارة المسجد الحرام ، فبين ربنا - تعالى - أنهم لا يستون ومن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه .

ونفى الاستواء من القضايا الإسلامية الهامة العظيمة ؛ لأن الإسلام حين ينفى المساواة بين طرفين يدعو إلى الأفضل ، وكم كان الصحابة - رضوان الله عليهم - حريصين على سؤال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أفضل الأعمال ، وأحبها إلى الله - عز وجل - وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يبين لهم الأفضل والأعلى دون سؤال منهم ، كما فى قوله - صلى الله عليه وسلم - "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده" .

وقد تفشى فى الناس عكس ذلك ، ألا ترى إلى شيوع عبارات "لا فرق" ، و"كله محصل بعضه" ، و"طولها مثل عرضها" و"أى حاجة" و"لا يهم" و"كل شى كان" وغير ذلك ، الأمر الذى لا يدعو إلى التطلع والترقى وليس ذلك من الإسلام فى شىء .

وهو عند الله عظيم :

وفى آية النور (١٥) يقول الله - تعالى - فى سياق حادثة الإفك أى قذف المحصنات الغافلات : { إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّينَ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } .

ما أكثر الأشياء التى يظنها الإنسان هينة وهى عظيمة ، ومن ذلك آفات اللسان ، فإن الناس يقولون فى الناس لاسيما المحصنات الغافلات المؤمنات رجماً بالغيب ، ويعتبرون ذلك تسليية ، ومسامرة ، وأنساً ، ومدارسة لأحوال الناس وبعضهم يظن أن للإنسان أن يقول ما يشاء ، ولا

عليه شئ مادام ينهى مجلسه بدعاء : سبحانك اللهم وبحمدك نستغفرك ونتوب إليك ... وليس هذا من الإسلام فى شئ ؛ لأن المسلم لا يفعل المعاصى إصراراً وتخطيطاً ، ما قال الله : افعلوا كذا وقولوا كذا ، ولا رسوله - صلى الله عليه وسلم - وإنما أمر ربنا ونهى ، وأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأمر منه - عزوجل - ونهى ، والإنسان ضعيف ، وبين جنبه نفس أمارة بالسوء ، وكذا الشيطان فهو يقع فى المعاصى بسبب ذلك ، ويندم ، ويتوب ، ويقول رب اغفر لى ، والله يتوب عليه ، وقد قال تعالى : { وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } آل عمران : ١٣٥ .

إنما يقول المسلم دعاء المجلس مع ما فيه من خلاف ذكره ابن كثير فى تفسيره لاحتمال أن يكون قد قال شيئاً عن غير قصد .

أما أن يكون المجلس - والعياذ بالله - قد أنشئ من أجل الكلام فى أعراض الناس ، وتتبع عوراتهم ، ومعرفة آخر شائعة وحب ذلك ، فهذا يعرض المجتمعين لعذاب الله - عزوجل - فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى فى آية النور (١٩) : { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

وكان عند الله وجيها :

كم من وجيه عند الناس بأناقته ، وحسن اختياره ثوبه ، ونعله ، وهو عند الله عزوجل دميم كالح ، وكم من دميم عند الناس ، فيما يرون ، أو فيما يظنون ، وهو عند الله وجيه .

ظن بنو إسرائيل أن بموسى - عليه السلام - عيباً تحت ثوبه ، فأبرز الله بدنه للناظرين بلا عيب ، قال تعالى فى آية الأحزاب (٦٩) : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً } .

فهل تحب أن تكون عند الله وجيها على المعنى الذى لم يختلف فيه عالمان ، أو بلغة القدامى لا تنتطح فيه عنزان؟ وهو أن تدعو الله ، فيستجيب لك ، هكذا قال الأئمة فى تفسير هذه الآية الكريمة ، بأن وجاهة كلهم الله - عزوجل - معناها أنه سأل الله أن يرسل معه أخاه هارون ؛ فأجاب الله دعاءه ، والوجيه والوجاهة من الوجه ، وكل وجه يتعرض لمسألة فتقضى من أجله وجيه ، وإن لم تكن ملامحه دقيقة التعبير عن جمال فيه وحسن . وكل وجه يتعرض لمسألة فلا تقضى فهو دميم وإن كان ناطقاً بآيات الحسن والجمال .

روى البخارى قول سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "رُب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره" .

ولهذا الحديث قصة رواها البخارى وغيره ، هى أن الربيع بنت النضر أخت أنس بن النضر شهيد أحد عم أنس بن مالك خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كسرت تنية امرأة ؛ فأبى أهلها العفو ، وأخذ الأرش ، وقالوا لابد من القصاص ، فقال أخوها أنس بن النضر أو تقطع ثنية الربيع يا رسول الله؟

فقال عليه الصلاة والسلام : يا أنس شرع الله القصاص فقال : والذي بعثك بالحق لا تقطع ، فوافق الناس على أخذ العرش ؛ فقال عليه الصلاة والسلام. الحديث حيث أقسم أنس ، فوافق الناس ، فمن الذى أودع فى قلوبهم إرادة أخذ الأرش وكانوا من قبل قسمه يأبونه إنه الله - عزوجل - الذى أبر قسم عبده ، ومعنى الأشعث الأغبر أى الذى لا يأبه به أحد من الناس.

وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً :

لن يفلح امرؤ ولن يفوز إلا إذا عدّ فوزه وفق ما عده الله عنده فوزاً عظيماً ، وما أكثر الذين يزعمون أنهم فائزون وهم خاسرون ، يقولون أننا ناجحون وهم فاشلون والفوز العظيم عند الله تعالى أن يدخلنا جنته ، وأن يكفر عنا سيئاتنا ، قال الله سبحانه فى آية الفتح (٥) : { لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً } .

وسبيل الجنة واضح المعالم غير مبهم ولا مجهول ، قال صلى الله عليه وسلم : كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى قيل : ومن يأبى يا رسول الله؟ قال : مَنْ أَطَاعَنِى دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ أَبَى .

ولاشك أن الفوز بالجنة والنجاة من النار فوز عظيم لمن جرب النار التى هى تذكرة ومتاع ، وهى لا شئ فى نار الآخرة ، فنار الآخرة لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى ، وهى بلاشك أشد

وأبقى ، لكن الذى يوجه نظره وقلبه إلى ما عند الله عزوجل يكون حريصاً كل الحرص على نيل ما عند الله ، عزوجل ولن ينال ما عند الله عزوجل إلا إذا حكم بحكمه ، فعد دخول الجنة فوزاً عظيماً ، بمعنى أنه تهون عنده الدنيا وما فيها فى سبيل الحصول على هذا الفوز العظيم .

ومن أمثلة ذلك "العفو" لقول الله تعالى فى آية آل عمران (١٣٤) {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} .

فبعض الناس يملك أن يعفو عن أخيه ، لكنه يصر على ألا يعفو ، ويرى فى ذلك فوزاً عظيماً ، وشفاء لغليله وراحة لنفسه وصدره ، ولمثل هذا أقول : إن الجنة فوز عظيم ومن معالم سبيلها العفو ، فإذا كنت تعتقد أن الجنة فوز عظيم عند الله فلتكن فوزاً عظيماً عندك أيضاً ، فإن كانت فوزاً عظيماً عندك عملت من أجلها ، ومن أجل ما تعمل من أجلها أن تعفو عمن ظلمك ، وقد عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة يوم الفتح المبين ، وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ولنا فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة ، وغير ذلك من فضائل الأعمال التى لا يلقاها إلا الذين صبروا ، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

إن كثيراً من الناس يصرون على فوز الدنيا ويروونه مغنم المغنم ، ونهاية المطاف ، والشقى من يرى ذلك والسعيد من نظر إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا ، إلى ما بعد الموت ، من جنة هى الفوز العظيم ، ونار والعياذ بالله هى الجحيم وقانا الله شرها .

الفصل الخامس

أسئلة الله لعباده

أسئلة الله لعباده :

فى أسلوب ميسر بلا تعقيد ولا فلسفة أرى أن من التعرف على الناس الذى خبرناه أن نقول لإنسان دخل على شخص ما ، بالذات لو كان هذا الشخص عظيما عندنا ثم خرج من عنده ، تقول لك ماذا سألك؟ حتى ونحن فى زمان الطلب وفى لجان الامتحان الشفوى كنا يسأل بعضنا بعضا إذا خرج من اللجنة : عن أى شئ سألوكم نتعرف من خلال ذلك على أسئلة اللجنة ، أهى عادية ، أهى صعبة ، أهى معجزة ، وهكذا ، ومن ثم تفكرت فى أسئلة المولى عزوجل عباده .

والسؤال كما هو معروف أو الاستفهام الأصلى فيه طلب المعرفة وهذا محال على الله - عزوجل - فإنه سبحانه بكل شئ عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وقد يكون السؤال بهدف الاختبار ، كما هو الحال عند الامتحان ، فالسائل - وهو الأستاذ - يعرف بلا شك جواب سؤاله ، ويريد أن يقف على علم التلميذ ومن ثم فهو يضع له درجة معينة تناسب مقدرته وعلمه ، وهى تختلف من تلميذ إلى تلميذ بحسب جوابه ، وتفننه فى هذا الجواب فهناك من يحصل على درجة "ممتاز" وهناك من يحصل على درجة "جيد جدا" ، وهناك من يحصل على درجة "جيد" ومقبول وضعيف وضعيف جداً ، وهناك من يحصل على الصفر ، وهو الذى أجاب ولكن فى غير المطلوب ، أو لم يقل شيئاً ، أو قال : لا أدرى ، وقد يكون الغرض من السؤال النفى والإنكار وقد يكون الغرض منه : التقرير ، أى أن يقر السائل المسئول وهذا كثيراً فى الكتاب الكريم ، انظر

إلى قول الله - تعالى - فى سورة النبأ الآيات (٦-١٦) : { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا . وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا . وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا . وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا . وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا } .

والجواب عن كل هذا :

- ١- بلى جعلت يا ربنا الأرض مهاداً .
- ٢- وبلى جعلت يا ربنا الجبال أوتاداً .
- ٣- وبلى يا ربنا خلقنا أزواجاً .
- ٤- وبلى يا ربنا جعلت نومنا سباتاً .
- ٥- وبلى يا ربنا جعلت الليل لباساً .
- ٦- وبلى يا ربنا جعلت النهار معاشاً .
- ٧- وبلى يا ربنا بنيت فوقنا سبعاً شداداً .
- ٨- وبلى يا ربنا جعلت سراجاً وهَّاجاً .
- ٩- وبلى يا ربنا أنزلت من المعصرات ماءً ثجاجاً ، فأخرجت به حبا ونباتاً ، وجنات ألفافاً .

أى نعم ، لا : لا ، كل ذلك بالآيات ، فما مقتضى هذا الإقرار؟

ولاشك أن مقتضى هذا ألا ننكر بالبعث ، لأن الذى خلق هذا ، وهو عظيم قادر على النشأة الأخرى ، ومن ثم رأينا هذه الأسئلة عقب سؤال الكافرين عن اليوم العظيم الذى اختلفوا فيه {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ . الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ . كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ } .

أى كيف يتساءل الكافرون وينكرون البعث والنشور ، كلا سيعلمون أنهم مبعوثون ، ومحشورون إلى جهنم وساءت مصيراً ، ألم نجعل الأرض مهاداً ... إلى آخر الأسئلة التى لا شك فى أن الجواب عنها بالإثبات والإقرار يدعو إلى التأمل والتفكر اللذين يقتضيان الإيمان والتسليم بالبعث والنشور ، كما قال الله - تعالى - فى الآيات (٧٧-٨٣) { أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } .

فانظر كيف سأل العبد المنكر للبعث ، وبم أجاب الرب القادر على البعث ، قال العبد وهو منكر وقد جاء برفات من المقابر وأراه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال يا محمد ، من يحيى هذه العظام وقد أومت؟!

فأجاب الرب القدير : قل يا محمد له ، ولأمثاله : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، وأكد ذلك بقوله : الذى جعل لكم من الشجر

الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم .

وأجاب عزوجل وهو نعم المجيب ، فقال : بل وهو الخلاق العليم .

ثم بين أنه - تعالى - لا يعجزه الخلق ولا الإعادة ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وكان وكان القضية تقتضى التسبيح ، أى تنزيه الله عزوجل عن كل نقض لا يليق بذاته المقدسة ، ومن هذا النقض الذى لا يليق بذاته المقدسة أنه يعجز عن بعث عباده بعد أن أحياهم من عدم ، وأماتهم فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه مرجعنا جميعاً أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها؟

وفى آيات النازعات (٢٧-٣٣) يقول الله - تعالى - : { أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمَ السَّمَاءِ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } .

والجواب : بل خلق السماء والأرض أشد من خلقنا والدليل على ذلك قول الله - تعالى - الذى خلقنا وخلقهن ، فقد قال سبحانه فى آية غافر (٥٧) : { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } .

فلم يتركنا ربنا - تعالى - نضرب أخماساً فى أسداس ، ولم يتركنا كذلك لنزعة فيه شائبة تكبير ، فنزعم أن خلقنا أشد وأكبر والذى خلق بيده

هو الذى يعلم أى الخلق أشد وأكبر ، وكل لا يعجزه ، { مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا } الكهف: ٥١.

إن الله عزوجل ما أشهد عباده خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما اتخذ من عضد يساعده ؛ لأنه على كل شئ قدير ، وخلق الأكبر يتساوى عنده وخلق الكبير والصغير ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وفى سياق التعرف على الله ذى الجلال نجد لطيفة مهمة ، هى أن الصانع الذى يصنع الكبير والصغير يضع لكل منهما قيمة وسعراً بناءً على ما بذل فى الكبير من جهد ، وما أودعه فيه من نفقات ، ألا ترى إلى صانع الفطير مثلاً ، يصنع الكبيرة والصغيرة ، وكلتاها من عجينة واحدة ، ولكن سعر الكبيرة أعلى من سعر الصغيرة ؛ لأنها كلفته أكثر من أختها .

وقد يحيك لك الترزى ثوباً بعشرين ، فإذا طلبت إطاراً معيناً زادت التكلفة عليك ؛ لأن ذلك يتطلب منه ومنا أكثر ، وهكذا تتفاوت السلع والمصنوعات ، وتختلف أسعارها بالنظر إلى ما أشرت من بذل زيادة فى جهد ووقت ، وخاصة ، وهكذا .

لكن تبارك الله أحسن الخالقين ، ومن وجه هذا الحسن أنه - عزوجل - خلق السماوات والأرض وكذا الإنسان بكن فيكون ، { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } آل عمران : ٥٩ .

وما من صانع يصنع الصنعة ، وبعد أن يسويها يقول لها كونى فتكون ، وإنما هذا القول لله - عزوجل - وحده .

ولعلك تجد تفاوتاً بين الناس فى حسب وفى لون وفى جنس وتأتى أحكام الشريعة لتقول : { النفس بالنفس } المائدة : ٤٥ فمن تراه فى عينك ذا شأن قليل يساوى عند الله دمه الذى تراه عينك ذا شأن عظيم ، والمسلمون كما جاء فى الحديث تتكافأ دماؤهم ، لأنهم جميعاً خلق الله عزوجل .

التعجب :

كلما مر بى هذا العنوان تذكرت ما أقوله لطلابى فى الجامعة فى مصر ، وفى السعودية حيث شرفت بالتدريس أستاذاً مشاركاً فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها ، وذلك الدرس "التعجب" من الدروس المقررة على طلاب السنة الثالثة بالمرحلة الجامعية الأولى "طلاب الإجازة العالية" "الليسانس" وفى السعودية "البكالوريوس" .

حيث وفقنى الله - تعالى - فى أن أبين لطلابى ما ورد منه على سبيل التعجب أو القياس "ما أفعله وأفعل به" فى القرآن الكريم إذ لا مشكلة فى أن تقول لصاحبك من التعجب : سبحان الله ، أو كيف تفعل هذا ، أو أن تقول له من القياس : ما أصبرك ! وما أصبر فلاناً ، إنما المشكلة فى وروده فى كتاب الله - تعالى - من التعجب أى من غير القياس الذى يفيد التعجب ، أو من القياس .

وعنوان الباب دليل على معناه ، أى هل يصدر عن الله ربنا - عزوجل - تعجب؟

والجواب : حاشاه ، وأبدًا لا يكون ، فالسؤال فكيف تفسير من الأول قول الله - عزوجل - : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } البقرة : ٢٨ .

فهذا تعجب على غير القياس ، أى ليس على صورة : ما أفعله! وأفعل به!

وكيف تفسير من الثانى قوله - تعالى - :

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } البقرة : ١٧٥ .

ومثال ذلك من القياس : { قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ } عبس : ١٧ .

والجواب كما قال العلماء : يخاطبنا ربنا - تعالى - بلغة نفهمها ومعنى ذلك أن من رأى كفر الإنسان بربه برغم وضوح آيات قدرته وبدائع صنعه ، يقول : كيف يكفر! ويقول : ما أكفره! ومن رأى المشركين فى النار خالدين فيها ، لا يغير عنهم من عذابها قال : ما أصبرهم على النار! أى أن هذه مواقف تدعو إلى التعجب ، لا من قبل الله - عزوجل - وإنما من قبلنا نحن المخاطبين بهذه الأساليب العليا فى الفصاحة ، فلا تعجب فى الحقيقة من الله - عزوجل - ؛ لأن التعجب شئ يثار فى النفس بسبب ما ترى وتسمع من غير معتاد ، والله - عزوجل - تعال عن ذلك علوًا كبيرًا.

وهذا يدفع بنا إلى التعرف على مواطن العجب والتعجب فى كلام الله - عزوجل - ربنا - وفق هذا البيان ومنه ما ذكرنا من آيتى البقرة { كيف تكفرون بالله } و { فما أصبرهم على النار } ومن آية عبس { قتل الإنسان ما أكفره } .

أى مع وضوح الحجة ، وبروز الدلالة على قدرة الله - تعالى - يكون من الإنسان الكفر والجحود .

ولهذا كما أحب أن أتوقف دائماً ثمرة فى حياتنا يجب أن نضعها نصب أعيننا ؛ وتلك الثمرة أن فى الناس غرائب وعجائب ، فلا يقتل أحد نفسه فى التعجب من هذا ، فإذا كان هذا مع الخالق - عزوجل - يرى المخلوق آياته ويكفر به فكيف هو مع نظيره المخلوق ، فهون على نفسك يا مَنْ عطفت عليه وربيتة ، وفى الشدة أعتته ، وفى الرخاء أسررتة وأسعدته ثم رماك بأول سهم لقيه ، وحنّ عنك لأول سبيل عرفه ، والله در القائل من قديم:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

وقد رأيت أناساً فى هيئتهم كأنهم بلغوا من الكبر عتياً وهم فى سن الشباب ، ورأيت من المرضى النفسانيين الكثير بسبب ذلك ، فهذه زوجة تحدث من أجله أهلها ، وتزوجته أى زوجها منه لرغبتها دون رغبتهم ، وأعطته عمرها وشبابها وجميع ما تملك ، ثم رماها بعد (أن فتح الله عليه) وصديق صديقتها ، ثم تزوجها من بعد ، وكان أن مرضت نفسياً وصارت

زبونة دائمة عند مشاهير الأطباء النفسانيين لا ترحم دموعها عينيها ، ولا يقر له منظر جمال ، ولا تعيش حياة طبيعية ؛ بسبب هذا الخائن ، ألوف القصص ، ومئات الأمراض ، وعلى لسان الجميع "لماذا؟" و "بعد كل هذا" !

والجواب : ذلك إنسان ، من صفاته أنه يكفر بربه {قتل الإنسان ما أكفره} أفيكفر بالله ويؤمن بك ، وإذا كان ذلك الإنسان في أول عهدك به كان يتضرع إليك ، وكان يقول لك : لن أنسى فضلك على ، وأنا مدين لك بكذا وكذا ، وأنت وأنت أو لم تعلم أنه قال ذلك لربه {لَنُنْجِيَنَّاهُ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} . قل الله يُنَجِّيْكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ { الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ .

ألم تقرأ قوله تعالى أيضا في آيتي يونس (٢٢ ، ٢٣) : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعْوَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} . فلما أنجاهم إذا هم يبعون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إني مرجعكم فتنبتكم بما كنتم تعملون {

فلم العجب الذي يقتل بعد هذا العلم ، وقد عرفنا قول الناس : إذا عرف السبب بطل العجب .

ومن هذا التعجب المسوق في أسلوب الاستفهام قول الله - تعالى - {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِحَقِّ أَقْمَنَ يَهْدِي

إلى الحق أحق أن يتبع آمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون { يونس : ٣٥ .

ومن ذلك قوله - قال في آية يونس (٥١) : {أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} .

وكذلك قوله - تعالى - فيها الآية (٩١) : {الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} حين قال فرعون أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

وما أكثر مثل هذه النماذج الداعية إلى التعجب ، أي نماذج الذين لا يؤمنون إلا بعد أن يروا العذاب ، وقد كانوا يدعون إلى الإيمان وهم سالمون مع وضوح الحجة والبرهان .

ومن ذلك قول الله - تعالى - في آيات النور (٤٧-٥١) : {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مدعين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون {

تصور أن هناك من إذا كان له الحق أتى مدعنا منقاداً جميلاً مؤمناً ، وإذا كان عليه الحق أعرض ألسنت ترى ذلك شبيها بقول الناس "فلان إذا

كان آخذًا جاء مبكرًا وإذا كان معطيا تولى واعتذر" وقولهم: "فى القرح مدعوون وفى الفرح منسيون" وقول الأول:

وإذا تكون كريهة أدعى لها وإذا يماس الحيس يدعى جندب

أى عند المصائب والكوارث يدعى الشاعر، فيقال: يا فلان، أقبل وأقدم، ودافع عنا، وعند الحيس (نوع من الطعام الحلو) يدعى أخوه جندب؛ فيقال: يا جندب، أقبل وأقدم، وكل، فهذا هو الحيس الذى تحبه، وكأن الشاعر حيث رفع مظلمته إلى الوجود، كان يود العدل بينه وبين أخيه جندب، بأن يدعى معاً إلى الكريهة، ويدعى معاً إلى تناول الحيس أو غيره من صنوف الطعام، أو على الأقل يدعى هو وحده إلى الكريهة إن كان مثل عنتره بن شداد فارساً لا يشق له غبار، وكان أخوه جندب عاجزاً، لكن حين يحاس الحيس يدعى إليه كما يدعى إليه أخوه جندب.

لكن الواقع كما قال، يدعى هو إلى المصائب، ويدعى أخوه إلى الطعام، هذا الذى يدعو إلى العجب؛ وما أكثر مواطنه فى سلوكيات الناس، مع الأسف الشديد.

ومن هذا الذى يدعو إلى العجب محاجة أهل الكتاب فى إبراهيم - عليه السلام - يقول اليهود: هو يهودى ويقول النصارى: هو نصرانى، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده.

يقول الله - تعالى - فى سورة آل عمران الآيات (٦٥-٦٨): {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ . هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجُّونَ فِيهِمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيهِمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ }.

أنظر إلى قضية المحاجة فى خليل الله - إبراهيم - عليه السلام كيف تكون مثار عجب، يذكر بك بما نحن عليه من كل خوض فى واضح النفى حين نثبتته، أو واضح الإثبات حين ننفيه وحين ينتسب امرؤ إلى رجل ليس من وطنه أصلاً، وحين يدعى أحد شيئاً تقرر فى التاريخ أنه محال أن يكون فلا تستغرب أن يقول لك إنسان: زار أبو بكر - رضى الله عنه - عمر - رضى الله عنه - بسيارته المرسيديس، مع أنه لم يكن فى زمانهما - رضى الله عنهما - جنس سيارات.

ولله در من قال: حضر مصعب بن عمير - رضى الله عنه - موقعة القادسية، وأبلى فيها بلاء حسناً؟ فرد عليه رجل وقال: أوقد بعث؟؛ لأن مصعب بن عمير رضى الله عليه مات شهيداً يوم أحد، أى قبل القادسية بأعوام طويلة.

واقراً فى ذلك قول الله - تعالى - من سورة آل عمران الآية (٧٠) حيث يقول تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} وقوله تعالى فى الآية بعدها (٧١): {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

ومن ذلك قوله تعالى فى آية آل عمران الآيتين (٧٩ ، ٨٠) : {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} .

كيف يدعى أناس أن رسولا من الله يأمرهم بالإسلام له وحده ، ثم يقول لهم : اعبدون ، {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} .

ومن ذلك قول الله - تعالى - فى آية البقرة (٤٤) : {اتَّأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} .

وما أكثر الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، وهم بلا شك لا يعقلون وإن ادعوا أنهم يعقلون ، ومن ثم ورث الناس هذا المثل المعروف "باب النجار مخلع" .

فهذا يأمر بالبر وينسى نفسه وهو يتلو الكتاب ، وهذا يتبع أباه وهو أبوه لا يعقل ، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ} البقرة : ١٧٠ .

وما أشبه هؤلاء بالذين يتبعون الدجالين وقراء الكف والفنجان ومعبرى المنام ، ومن لا حجة له ، ولا برهان ، يستمع إليه ويشهق ويضطرب لما يقول ، يصدق ، ويؤمن به ، ويتبع نصحه ، وينصرف عن الهدى والحق.

ومن ذلك التعجب المسوق فى أسلوب الاستفهام قول الله عزوجل فى آيتى الصف (٢ ، ٣) : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} .

وتلك هى التى أسميها المفارقة بين العلم والعمل ومن العمل العمل بما نعلم ، والقول لسان من السنة العلم بلا تردد ، ترانا نقول الجميل ونعمل السوء ، نقول الحق ونعمل الباطل ، نقول العدل ونظلم ، وننطق بآيات التحضر وحياتنا تشهد بأننا متخلفون .

مما يخفف من التعجب :

وقد وجدت فى سورة الفرقان ما يخفف من التعجب فيما أرى ، سبحانه الله ذلك قوله فيها الآية (٤٠) : {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءًا أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} .

إن التعجب فى {أفلم يكونوا يرونها} ونحوه كثير من الأساليب التى تنثير فى نفس العاقل معنى التعجب ، أى حين يرى من ضرب الله - تعالى - له الأمثال ليعتبر ، فلم يعتبر ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة ، كيف يمر الكفار على القرية التى أمطرت مطر السوء ولا يعتبرون ، وقس على ذلك فى حياتنا .

كيف يمر إنسان فى طريقة إلى الهلاك بسبب سلوك معين بمن سبقه إليه وقد لقى سوء مصيره فلا يتعظ ، ولا يوقظه الخوف من أن يلقى ذات المصير الذى يراه يعينيه ، ويتمادى فى سلوكه!

وكيف يصبر طالب على الغش فى الامتحان وقد رأى زميله الذى سبقه إلى الغش مفصولاً أو معاقباً عقاباً شديداً !

وكيف تصر زوجة شابة على التمرد وعصيان زوجها وقد رأت أختاً لها على هذا السلوك وطلقت!

وكيف يصبر رئيس دولة على البقاء فى مقعده رغم شلال الدماء المنبثقة من شعبه الذى خرج يطالبه بالرحيل وقد رأى غيره قد رحل لذات السبب ، فلم يعد الشعب إلى سيرته الأولى إلا بعد رحيله!

ومما يخفف من التعجب فى هذه الصور ظن الناس أنهم غير من سبقهم ، وعلى الأخص تلك الصورة الأخيرة ، فقد أعلن الرؤساء الذين يصرون على البقاء فوق أنفاس شعوبهم اللافتة نظام حكمهم أنهم ليسوا مثل غيرهم الذين رحلوا .

سئل السيد أحمد أبو الغيط وزير خارجيتنا عندما هب شعب تونس ، وخلع رئيسه زين العابدين بن على : هل من الممكن أن يحدث فى مصر ما حدث فى تونس ؛ فقال (هذا كلام فارغ) وقد حدث فى مصر ما حدث فى تونس ، وخرج الشباب يوم الثلاثاء ٢٥/١/٢٠١١ ومن ورائهم الشعب كله ، ونجحت الثورة ، وتخلّى الرئيس محمد حسنى مبارك عن منصب رئيس الجمهورية ، واليوم يحدث هذا فى ليبيا الجارة ، وفى اليمن ، وفى البحرين ، وفى سوريا ، وفى السعودية كلام ، حيث أمطرها خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز بمليارات الريالات ، فهدأت ثورتها قليلاً ،

والله يعلم بما تحمله الأيام القادمة ؛ لأن وعى الناس فى ازدياد ، وهم يرون أن هذه المليارات مسكنات ، ولا تصلح علاجاً ، وهم يريدون مثل إخوانهم إصلاحات سياسية شاملة ، والدنيا تتغير من حولهم ، والتغيير يأنس بالتغيير كما يقول علماء اللغة .

وقول الله - تعالى - : {بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} الذى يخفف من التعجب يدل على أن هؤلاء يستهزنون بالعذاب ظانين أنهم لن يبعثوا بعده .

كالتى تستهين بالطلاق ظانة أنها سوف تتزوج من بعد مطلقها بسيد سيده ، وأن الساعى إلى الغش لن يضبط كما ضبط زميله ، فهو يراه أخرق ، أو لا يعنيه أمر الدراسة ، فهو فى غنى عما عليه من درسا من بطالة ، فله وعنده شركات لأبيه ، وهكذا ، ومنذ قديم والناس يقولون : إذا عرف السبب بطل العجب ، وما أكثر الأسباب التى ذكرها ربنا - تعالى - فى الكتاب العزيز سواء مع الأبرار أو مع الفجار ، وذكر السبب مع الأبرار يكشف لنا ما وراء جهادهم وأعمالهم من سبب قد تظن أنه فينا ، فإذا ما قارنا أعمالنا إلى جانب أعمالهم تبين لنا الفرق بيننا وبينهم ، وذكر السبب مع الفجار يخفف من تعجبنا الذى يكاد يقتلنا ، وبذكر السبب يخفف هذا التعجب ، فمن الأول على سبيل المثال قول الله - تعالى - : {وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} القصص : ٢٧ .

فالصالح لا يشق على الناس ، ولم أجد إنساناً فى حياتى لا يقول إنه غير صالح ، إلا من قبيل المزاح أو ادعاء التواضع وسواء أكان ما يقول إنه غير صالح مازحاً أم مدعياً تواضعاً تراه بعد قليل وقد قيل له : لا ، لا ،

إنك إمام الصالحين وزعيم المتقين يهز رأسه موافقا ، ويعتصر عينيه حالبا دمع التصديق بأنه من الصالحين الكبار ، لكن أعماله غير شاهده بصلاحه ، إنها شاهده بعكس الصلاح فمن قال إنى صالح ، أو سكت موافقا من يقول إنه من كبار الصالحين فليُنظر إلى ما عمله الصالحون لاسيما من ذكرهم الله تعالى بالصلاح ، وليقارن عمله بعمل هؤلاء .

ومن ذلك قول الله - تعالى - فى سورة ص الآيات (٤١-٤٤) :
 {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .
 ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ . وَخَذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ
 إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } .

والشاهد فى الآيات أن الله عزوجل وصف عبده أيوب بأنه صابر ، وأنه نعم العبد ، وأنه أواب ، وقوله تعالى - نعم العبد - عموم جاء بين خصوصين ، أنه صابر ، وأنه أواب ، وما أجمل العموم بين خصوص وخصوص كأنه واقع بين حصنين ، ومفسر بتفسيرين ، وقد أقول أنا إننى صابر ، وقد أقول كذلك إننى أواب ، وقد تقول أنت ذلك ، ولكن هل نحن كأيوب ، عليه السلام - أعنى هل نحن على منوال الصفة حتى لا يظن أحد أن المقارنة بين نبي وغير نبي ، فالصفة واحدة ، وإن اكتملت فى الأنبياء لكنها باقية ، وليس هناك صفة ذات معالم عند نبي وذات معالم مختلفة عند غيره ، الصفة هى الصفة ، ومعالمها هى معالمها وإن كانت بارزة عند النبي والتصديق إلهية والصالح أكثر من غيرها عند غيرها .

لقد قال أيوب - عليه السلام - {مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} وقال فى آية الأنبياء : {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} وكم من ألوف مؤلفة تقول : ضررتنى يارب ، ابتليتنى يارب ، أصبتنى يارب ، كل ما يأت به الله خير ، ينسبون إلى الله - تعالى - الضر ، والكوارث ، ويقولون إننا صابرون والله عزوجل يقول فى سورة آل عمران الآيات (١٤٦-١٤٨) :
 {وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } .

لك أن تقف عند الصبر مع هؤلاء ، وخلاصة ما يقال فيه أنهم ما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا وانظر إلى قولهم الذى حصره الله تعالى فى {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} .

وانظر إلى كثير من الناس الذين يصفون أنفسهم بالصبر ، أو يصفهم غيرهم به ، كيف تراهم على ضعف وخور ، وتهاد ، واعتزال للحياة ، وانطواء ، إذا رأيتهم من بعيد حسبت أن مصيبتهم لم يصب أحد بمثلها ، فإن دنوت منهم وجدت الخطب الذى أصابهم يسيرا ، وأنهم أقل بكثير من أناس عرفتهم ، أصيبوا بأشد مما أصابهم ، وكانوا أشد منهم جلدأ .

الصفحة	الموضوع
٣	- المقدمة
٨	الفصل الأول : مع الله عزوجل
١٣	- معنى الله
١٥	- الله هو الولي
١٨	- إنما قولنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون
١٩	- بما أمر الله وعن أى شيء نهى؟
٤٣	- الذين يحبهم الله تعالى
٤٨	- كتب عليكم القتال وهو كره لكم
٤٩	- علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ١٨٧ البقرة
٥٤	- بل الله مولاكم
٥٩	- عرض الولاية
٦٠	- التعرف على الله عزوجل على علم
٦١	- يا داود إنا جعلناك خليفة
	- والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق

الفصل الثانى : ماذا قال الله

٧٠	- وقال الله
٩٧	- ماذا قال الله تعالى لنوح عليه السلام
١٠٠	- ماذا قال الله لموسى عليه السلام
١١٥	- ماذا قال الله تعالى لأم موسى عليه السلام
١١٧	- ماذا قال الله لعباده
١٢٠	- ماذا قال الله للنحل
١٢١	- ماذا قال الله تعالى للنار
١٢٢	- ماذا قال الله عزوجل لخاتم النبيين

الفصل الثالث : ما يرضى الله ربنا من القول وما لا يرضيه

١٢٣	- ماذا أحب الله لنا أن نقول
١٢٤	- رب أنزلنى منزلا مباركا
١٣٠	- وقل رب أدخلنى مدخل صدق
١٣٢	- حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله
١٣٤	- ما يكون لنا أن نتكلم بهذا النور ١٦
١٣٦	- سمعنا وأطعنا النور ٥١
١٣٧	

١٩٨	- وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً
٢٠١	الفصل الخامس
٢٠٢	- أسئلة الله لعباده
٢٠٧	- التعجب
٢١٥	- ما يخفف من التعجب

١٣٨	- ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة البقرة ٢٠١
١٤٠	- ربنا أفرغ علينا صبراً البقرة ٢٥٠
١٤١	- ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا البقرة ٢٨٦
١٤٤	- أسلمت وجهي لله ومن اتبعن
١٤٥	- وقولوا للناس حسناً
١٤٧	- ما لا يرضى من القول
١٥١	- إن الله كره لكم قيل وقال
١٥٤	- لا يحب الله الجهر بالسوء من القول
١٦٨	- الذين لم يعرفوا الله عزوجل
١٧٦	- والله ما عرفت الله
١٧٩	الفصل الرابع : ما عند الله
١٨١	- إن الدين عند الله الإسلام
١٨٥	- وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله
١٨٨	- فعند الله مغانم كثيرة
١٩٠	- أعظم درجة عند الله
١٩٤	- لا يستئون عن الله
١٩٥	- وهو عند الله عظيم